رسالة تقديمية إلى القارئ

هذا الكتاب الذي تقرؤه هو مجموعة من رسائل نقدية كُتبت في شتاء عام **٢٠٠٦-٢٠٠٧** رداً على كتاب (وهم الإله) للبروفيسور ريتشارد داوكنز [١]. ريتشارد داوكنز هو عالم بريطاني عبقري ومشهور. شغل مقعد أستاذية شارلز سيموني لتبسيط العلوم للعامة في جامعة أكسفور [٢]، وهو واحد من أفضل مُقدّمي الشروح المُبسّطة للعلوم. بالرغم من ذلك، فقد أصبح في السنوات الأخيرة أكثر شهرة باعتباره أشهر ملحد بريطاني. اتخذت أعماله الحديثة –وبصورة متزايدة – طبيعة هجومية وعنيدة ضد الدين، تمثّلت بصورة واضحة في كتابه السابق (قس الشيطان)، وهو عبارة عن مجموعة من المقالات يهاجم الكثير منها المعتقدات الدينية[٣]، ثم تبِعه "وهم الإله" والذي يعتبر أكثر أعماله أهمية.

---

١ Bantam Press - ٢٠٠٦

٢ تشارلز سيموني أحد الآباء المؤسسين لمايكروسوفت، أسس ثلاثة أوقاف علمية بتمويله منها مقعد الأستاذية لتبسيط العلوم في جامعة أكسفورد عام ١٩٩٥ والذي كان ريتشارد داوكنز أول من شغله

٣ Weidenfeld and Nicholson -٢٠٠٣

ضرب كتاب (وهم الإله) الأسواق الأمريكية والبريطانية في وقت لا يكاد فيه موضوع الدين يبتعد عن دائرة الضوء وعناوين الصفحات الأولى. لأولئك الذين نشأوا في الستينات من القرن الماضي والذين ظنّوا أنهم يشهدون الديانة تلفظ أنفاسها الأخيرة، فقد كان مصدر إلهام واهتمام أن بدت "مسيرة التقدّم البشري" وكأنها أُعيقت بواسطة إعادة انبعاث المعتقدات الخرافية والدين 'غير المنطقي'. هناك قلق ملحوظ من أن يُصاحب تبعات أحداث ١١ سبتمبر والتزايد في التطرف الإسلامي تزايد مُضاد في التطرّف المسيحي. في أوروبا يرى الكثيرون ذلك وكأنه عامل محفّز على 'الحرب ضد الإرهاب'. في أمريكا يبدو أن هناك بداية لرد فعل سلبي إزاء تنامي القوة الملحوظة لليمين المسيحي. في ذلك المناخ العدائي، والارتباك الديني، والخوف، يأتي نفير داوكنز في البوق منادياً كل الملحدين على التوحّد والانتظام. هي رسالة تلقّت ترحاب من الكثيرين وأثارت قدر كبير من الاهتمام. احتلّ كتاب "وهم الإله" مكانهُ على قائمة أفضل الكتب مبيعاً في النيويورك تايمز لشهور عديدة، وهو على وشك تحقيق مبيعات مليونية في بريطانيا. وذلك بالرغم من ظهور عدد لابأس به من المراجعات السلبية والعدائية (جميعها بلا استثناء من جانب دعاة دينيين). هو كتاب قوي ومكتوب بشكل جيد، وبالرغم من نقاط ضعفه العديدة فقد أحدث تأثيراً كبيراً.

يولّد الكتاب كتابات للرد على ما جاء فيه. فقد كتب **أليستر ماكجارث** وزوجته **جوانا** كتاب "وهم داوكنز"[٤] للرد. وكُتبت كثير من المقالات والأعمدة الصحفية، والمقالات النقدية. فلماذا إذن نُضيف لكل ذلك هذا الكتاب الصغير؟ لقد كانت هناك الكثير من الردود الأكاديمية على الاتهامات المختلفة التي وجّهها داوكنز للدين، وأنا على يقين أنه سوف يكون هناك المزيد. ومع ذلك، فكل تلك الردود للن تقف حائلاً أمام الضرر الذي سيكون قد حدث بالفعل، وسوف يظل أولئك الذين لا يقرؤون الكتب الأكاديمية تحت تأثير الانطباعات والأكاذيب. ومن الجانب الآخر سوف يكون هناك من ذوي المنظور الديني من لديهم رد فعل يشبه رد الفعل العصبي للرُكبة والمطرقة، وسوف يواجهون عدائية داوكنز بمثلها. وبالرغم من أن ذلك قد يحظى بإعجاب المحيطين بهم فليس من المتوقع أن يفيد بأي شيء سوى التأكيد على

---

٤ The Dawkins Delusion? SPCK - ٢٠٠٧

الانطباع القائم بأن الأشخاص المتديّنين هم أشخاص متشنّجون ومُضلَّلون ومخدوعون. وبالتأكيد سوف يكون هناك من يرى ترك ذلك كله وتجاهله. في النهاية، هل سبق وأن تم تسوية أي قضية عبر الجدال؟ لا أعتقد أنك من المجموعة الأخيرة التي ترى تجاهل الأمر، وإلا لما كنت تقرأ هذا الكتاب.

باعتبار أنه قد سبق وصدر بالفعل – وسوف يصدر المزيد – من الكتابات النقدية، فلماذا نضيف لذلك هذه المجموعة من الرسائل؟ أعتقد أن الإجابة ببساطة هي أن كثير من الناس لن يمتلكوا الوقت، أو الحماس، أو المال اللازم للقراءة في كل موضوع يتناوله داوكنز. هدفي هو تقديم إجابة شخصية لداوكنز من خلال منظور شخصي وشامل. ليس هدفي تغيير موقف أحد، ولا إهانة أحد، ولا حتى الدفاع عن أي شيء. لكن هدفي مواجهة بعض الأساطير الأساسية التي يستخدمها داوكنز ويشجعها في كتابه، بحيث تستطيع أن تفكّر وتقيّم تلك الأمور بنفسك. إذا كنت مهتم بالقراءة عن تلك القضايا الضخمة أو مناقشتها باستفاضة أكثر فسوف تجد في نهاية الكتاب قائمة مُقترحة بأسماء بعض الكتابات.

كلمة أخيرة عن أسلوب الكتابة في هذه الرسائل. سوف يعتبرها البعض غاضبة للغاية، وسوف يجدها البعض الآخر ليست حادّة بما فيه الكفاية. سوف يتساءل البعض عمّا إذا كان التهكّم لائقاً، في حين سوف يتساءل آخرون : "أي تهكّم؟!". من المفيد أن نتذكّر أن تلك هي رسائل شخصية وليست مُحاضرة أكاديمية، وليست تمرين على قواعد اللغة الانجليزية.

أنا ممنون للغاية لهؤلاء الذين قرؤوا الرسائل وعقّبوا عليها (جراح الصديق جراح مُخلصة!). بالأخص، أود أن أشكر كل من د.إلياس ميديريوس، بيل شويتزر، د.جرانت ماكاسكيل، د.إيان دي.كامبيل، جاري أستون، د.ديوانجونز، دفيد كامبل، د.سام لوجان، ويل تراوب، د.سيز ديكر، نايجل أندرسون، د.فيل رايكن، إيفر مارتن، أليكس ماكدونالد، ألاستير دونالد، ودكتور ليجون دنكان. سواء أكنتم علماء أو فلاسفة أو لاهوتيين، أمريكيين أو بريطانيين أو أوروبيين، فقد قمتم جميعاً بالاستفزاز والتشجيع وإثارة الحماس. كذلك فأنا ممنون بالأخص لمحرّري د.بوب كارلينج والذي لا يمكن

أن يُقدّر صبره واقتراحاته بثمن. المسئولية النهائية لما هو مكتوب، بما فيه أي أخطاء أو أحكام خاطئة، هو بالتأكيد مسئوليتي وحدي.

لست عالماً، ولست أحد جهابذة أكسفورد ذوي الشهرة العالمية. هناك العديد من الأشخاص الذين بإمكانهم الدخول في التفاصيل والرد على اتهامات داوكنز بعمق أكبر مما قد يحاوله هذا الكتاب. بعض من خلفيتي الشخصية سوف يتجلّى من خلال الرسائل، لكن ربما يكفي في هذه المرحلة أن تعرف أنني أبلغ من العمر **٤٤** سنة، وأنني كاهن في كنيسة مشيخية بريسبيتيرانية في اسكتلندا. نشأت في مزرعة في مرتفعات اسكتلندا، ودرست التاريخ في جامعة إدنبرة، ثم اللاهوت في معهد الكنيسة. أعمل بالكهنوت منذ **٢٠** سنة، **١٤** سنة منهم في مدينة داندي. أنا كاهن مسيحي ذو اهتمام كبير بما يدعوه داوكنز ثقافة "روح العصر" – الطريق الذي تسلكه ثقافتنا. وأنا زائر كثير الترداد على الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا مع اهتمام خاص بتقديم "جود نيوز" وتطبيق الإنجيل على مشكلات مجتمع مابعد المسيحية الذي نعيش فيه. أعتقد أن الإنجيل مناسب وحيوي لكل الناس من مختلف الثقافات، وفي كل الأزمنة، وقد كان امتياز لي أن ألتقي بأناس من مختلف الخلفيات يتحوّلون إلى معرفة وحب المسيح بصورة تغيرت معها حياتهم تغييراً حقيقيا.

كشخص مسيحي ملتزم فقد انزعجت إزاء هجوم داوكنز على الله وعلى الإنجيل، وانبهرت بأن هجماته قد أُخذت بهذا القدر من الجدية. أعتقد أنه يحتكم ليس إلى ذكاء الناس ومعرفتهم، ولكن على العكس إلى جهلهم. نقدّم هذه السلسلة من الرسائل إلى القارئ من أجل مجابهة بعض من الترّهات الإلحادية التي يطرقها داوكنز في إسهاماته. تتعامل كل رسالة مع فصل من فصول كتابه، وتسلّط كل واحدة منها الضوء على واحدة على الأقل من الأساطير الإلحادية. أسميها ترّهات إلحادية لأنها معتقدات مُتناقلة أو مُفترضة بشكل واسع دونما استناد إلى تفكير عميق أو دليل ملموس.

إذا كنت مسيحياً فأفترض أنك تقرأ هذا الكتاب لأنك تريد التفكير في بعض القضايا التي تطرّق لها السجال الدائر،

وأنك مثلي تود استبيان كيف يمكن لإيمانك أن يستقيم مع المجتمع العصري. وإذا كنت لست مسيحياً بعد (أو أنك لست متأكد، أو أنك تتبع ديانة أخرى)، فأتمنى أن تستفيد من قراءة هذه الرسائل. وأصلي من أجل أن تحفّزك على التفكير وأن تثير اهتمامك وتستفزّك، وأهم من كل شيء أن تجذبك إلى التفكير في دعوة المسيح.

أخيراً، أود أن أتقدّم بشكري إلى محفل كنيسة St Peter's Free Church على حبّهم ودعمهم وتفهّمهم طوال السنين. وكذلك أشكر زوجتي وأفضل أصدقائي، إيزابيل، وأطفالنا أندرو، وبيكي، وإمّا–جين والذين هم تذكِرة دائمة لي بنعمة الله وفضله.

أُهدي هذا الكتاب إلى عظمة الرب، وفي ذكرى الملايين العديدة من الذين فقدوا أرواحهم في الحروب والقهر الذي شهده القرن العشرين، القرن الذي يشهد على فشل الإلحاد.

ديفيد إيه. روبرتسون

داندي – ٢٠٠٧

الرسالة الأولى

أسطورة الوعي الأعلى

عزيزي د.داوكنز ،

أرجو أن تعذرني على الكتابة إليك، لكنني انتهيت للتو من قراءة كتابك والذي وجدته مستفزاً. فبالرغم من أن هناك الكثير فيه مما يمكنني التوافق معه، إلا أن الكثير مما قدّمه الكتاب قد وجدته ببساطة شديدة مجرد خطأ. لكم أحب أن أتناقش معك أو مع واحد من أتباعك ومريديك حول ما فيه، لكنني أخشى أنني لست واحداً من أساتذة أكسفورد، وليست لديّ المساحة الإعلامية التي لديك، ولست جزء من المنظومة التي تحيط بك. وبالطبع فإنك قد أعلنت أنك لا تتناقش مع "أصوليين" أو مع هؤلاء الذين يؤمنون بالوحي وماوراء الطبيعة. وحيث أن الموضوع الذي يحظى بعدائيتك في مجمله هو التساؤل عن حقيقة الماورائيات وعن احتمالية وجود أو عدم وجود إله، أفلا تظن أنه نوع من الاحتيال أن

تكتفي بمناقشة ذلك فقط مع أولئك الذين يؤمنون بالفعل بافتراضاتك؟

ثم هنالك مشكلة ما تسميه "الوعي الأعلى". فأنت تدّعى أن من يشاركونك الرأي هم أشخاص تعرّضوا لدفعة إلى مستوى أعلى من الوعي. إن كتابك مكتوب ليجعل صوت الملحدين "عالي وفخور" بأن لديهم مستوى أعلى من الوعي، في نفس الوقت الذي يسعى فيه لرفع مستوى وعي أولئك الذين فاتهم هذا الحظ من بيننا. يذكّرني ذلك بقصة الامبراطور ورداءه الجديد. أخبر اثنان من الخياطين الامبراطور بأنهما أنتجا ملابس جديدة من أجله لا يمكن أن يراها سوى الحُكماء والمستنيرين (الذين اكتسبوا وعي أعلى). بالطبع، وحتى لا يبدو الامبراطور غبياً، فقد أعلن هو وجميع أفراد حاشيته قدرتهم على رؤية تلك الملابس الجديدة الرائعة والمدهشة. ولم يكن سوى عندما تجوّل الامبراطور عارياً في شوارع المدينة فرآه أحد الصبية وصرخ "إن الامبراطور يمشي عارياً" حتى أدرك الناس الحقيقة. أعتقد أن فكرتك أن الملحدون هم أولئك الذين اكتسبوا مستوى أعلى من الوعي، وأنهم دون شك الأكثر ذكاءاً وصدقاً ممّن عداهم من البشر، هي أسطورة تتساوى مع ملابس الامبراطور الجديدة.

بالطبع فأنا أدرك أن كثير من الناس الذين يشترون كتابك سوف يكونوا من المتحوّلين بالفعل- فهم بالفعل يحملون نفس معتقداتك وسوف يبحثون عمّا يحقق لهم الطمأنينة في تلك المعتقدات. وكأنك تبشّر الكورال الذي يردّد كلماتك، أو أنك تُقنِع المُقتنعين. هذا واضح بالفعل حتى من الأشخاص الذين يختارون الاقتباسات المكتوبة على غلاف الكتاب، أبعد ما يكونوا عن الحياد. **ستيفين بينكر، بريان إينو، ديرين براون، وفيليب بولمان** جميعهم يتغنّون بكتابك – ولكن كيف لذلك أن يكون مفاجأة عندما يكونوا جميعهم من الملحدين؟ يريد **بولمان** أن يوضع كتابك المناهض للإيمان ضمن منهج كل مدرسة دينية (وهو الأمر الذي أجده مُدهش بعض الشيء، نظراً للجَلَبة التي تُحدِثها إزاء ما تدّعيه من تلقين الأطفال – فيما عدا لو كان تلقين الإلحاد بالذات هو أمر لا بأس به لديك). يقول **إينو** أنه "كتاب للألفية الجديدة، كتاب يمكن أن يحررنا من حيوات تحكمها أساطير ماورائية". يالها من أفكار عميقة. لكن أفضل ماهنالك هو تأكيد

ديرين براون على أن كتاب "وهم الإله" هو "كتابه المفضّل على الإطلاق". وأنه "عمل بطولي وقادر على تغيير الحياة". وهو يأمل في أن "أولئك الذين يشعرون بالطمأنينة والذكاء الكافيين لإدراك قيمة مُساءَلة مَعتقداتهم، أن يكونوا على قدر كافي من القوة والنُضج لقراءته".

حسناً. أنا قرأته. توقّعت أن أواجه تحدّي ضخم. فأنت قبل كل شيء واحد من أفضل ثلاثة مفكرين في العالم (طبقاً لما يُذكّرنا به غلاف الكتاب). بالطبع فإن "وهم الإله" حسن الكتابة، وممتع للغاية، وحماسي. ولكن على المستوى المنطقي والعقلاني فقد وجدت أنه لا يجيد إصابة هدفه. فمُعظم ما فيه من ادّعاءات هي من نوعية ما قد يحيكه طالب بالثانوي يمتلئ بعدائية مُفرِطة ضد الإيمان. المثير للقلق هو أن تؤخذ أصوليتك الإلحادية على محمل الجد من قبل البعض، وأن تُستخدم لتقوية موقفهم المسبق المناهض للإيمان والمعادي للمسيح. سوف يُعاد تكرار ما تقوله من حجج حتى الغثيان في مشاركات القراء والأعمدة الصحفية وصفحات الرأي وفي البارات وعلى موائد العشاء في كل أنحاء البلاد. سامحني لقولي ذلك، ولكنني أرى أن ذلك يشبه إلى حد بعيد ما كان ينشره "المثقفون" في ثلاثينيات القرن الماضي عن اليهود واليهودية. تماماً كما ادّعوا أن اليهود كانوا مسئولين عن كل مشكلات ألمانيا النازية، كتابك يدّعى أن المتديّنون هم المسئولون عن غالبية مشكلات المجتمع العصري.

بمعية **جون لينون** – مغنّي البيتلز– فأنت تريدنا أن "نتخيّل" مجتمع لا دين فيه ولا إله. عالم تدّعي أنه لن يكون فيه انتحاريين (برغم حقيقة أن غالبية الهجمات الانتحارية نفذتها جماعة التاميل تايجر العلمانية في سريلانكا)، لا حروب صليبية، لا أحداث ١١ سبتمبر، لا صراع اسرائيلي فلسطيني. بالمناسبة، لقد كان جون لينون واحداً من أبطالي وقد أحببت بالفعل أغنية "تخيّل". ثم نضجت وأدركت أن الأمر ولا شك قد استلزم قدر كبير من الخيال لكي نأخذ على محمل الجد أغنية تتحدث عن مجتمع "خالي من الملكيات" في حين أن الرجل الذي كتبها وغنّاها عاش في قصر كبير وامتلك وفرة من الملكيات الخاصة بينما كان هناك ملايين يموتون من نقص الإمكانات. يبدو إليّ وكأن تصوّرك\رؤيتك هي على نفس قدر تصوّر لينون من اللاواقعية.

أود أن أكتب رسالة ردّاً على كل واحد من فصول كتابك. فكما أشرت فإن كل واحد منها يتناول موضوع محوري في وجودنا ومعنى هذا الوجود وسلامتنا كبشر. لكن دعني أنهي هذه الرسالة الأولى بالنظر إلى بعض أشياء أخرى تناولتها في مقدّمتك.

أنت تدّعي أن كتابك مُوجّه لأشخاص نشأوا في ظل ديانة معينة وهم إمّا توقّفوا عن الإيمان بها أو أنهم غير سعداء فيها ويريدون تركها. تريد أن ترفع وعي هؤلاء الأشخاص إلى الحد الذي يدركون فيه أن بإمكانهم ترك ديانتهم تلك. ألا يعلم الناس أن ترك ديانتهم هو أمر متاح بالفعل ولا يستتبع معاناة أي تبعات خطيرة؟ بالطبع إذا كنت تعيش في مجتمع إسلامي متشدد فإن ذلك غير حقيقي (لكن كتابك ليس موجّه إلى الإسلام) وأنا أدرك أنه للبعض في الولايات المتحدة فإن اعتراف الشخص بأنه مُلحد قد يكون بمثابة انتحار سياسي، لكن بشكل عام فإن معظم الناس أحرار في تغيير معتقداتهم. لقد نشأت في بيت مُتديّن وتعلمت منذ سن صغيرة جداً أنه ليس فقط من الممكن أن تترك ديانتك، ولكن أن ذلك عند كثير من الناس هو أمر طبيعي.لقد خُضت معاركي الخاصة حتى أُصبح حراً في التفكير لنفسي. لكن ذلك لم يضعني فقط في مواجهة مع التعليمات الدينية لوالداي أو الآخرين (وقد سبق لي مواجهة مثل ذلك)، لكنه وضعني في مواجهة التوقّعات الاستعلائية من الأساتذة، والإعلام، والآخرين ممّن حملوا افتراضات مسبقة بأن السبب الوحيد الذي قد يدفع أي شخص نحو الدين هو تأثير الأبوين، وغسيل المخ، وضعف العقل. لقد وصلت إلى الطمأنينة النفسية الحقيقية فقط عندما أدركت أنه بإمكاني أن أكون مسيحياً وفي نفس الوقت أن أفكّر بنفسي لنفسي، وأن أسعى لتحقيق اختلاف في هذا العالم. وأنه لم يكن عليّ أن أشتري جميع ثنايا وتفاصيل المجموعات الدينية الثقافية، ولا أصولية وتشدّد العلمانيين الذين يعلمون فقط أنهم على حق.

لا يمكنني التفكير في مهنة واحدة في بريطانيا قد يجعلك فيها كونك ملحداً في موقف أقل ميزة (ما لم تكن تفكّر في الالتحاق بالكهنوت – بالرغم من أن الشواهد حالياً تشير إلى أنه قد تصبح لديك فرصة!) على النقيض، هناك كثير من

الناس والذين يشكّل لهم الاعتراف بأنهم "متديّنين" عَقَبة شديدة أمام حياتهم الخاصة والمهنية. هؤلاء الذين يريدون أن يكونوا سياسيين مسيحيين، مُطربينن، رجال أعمال، مُدرسين، عاملين اجتماعيين، غالباً ما يواجهون تحيّز سلبي وخوف غير منطقي. من المفيد أحياناً إنكار إيمان الفرد أو حتى تركه. إن كونك مسيحياً هو في الغالب حجر عثرة أمام مسارك المهني الذي تختاره، حجر عثرة يفوق بكثير كونك ملحدا.

بالطبع هناك من ينتمون إلى ثقافات تمارس نوع من التحكم العقلي يشبه غسيل المخ، لكن بالتأكيد فحتى أنت لن تدّعي أن كل شخص متديّن يقع ضمن هذا التصنيف؟ يبدو أنك تعتقد أن أي شخص متدين هو في الواقع صاحب مستوى أقل من الوعي، ويحتاج أن يتحرّر عقلياً بأن يتحوّل إلى الإلحاد. بالطبع فأنت لا تقدّم أي دليل ملموس على ذلك.

مثل معظم الكتاب فإن ذلك لا يزيد عن كونه فرضية (أو تحيّز مسبق) لا يبدو أن له أي أساس من الصحّة سوى رغبتك في كونه صحيحا. هل سبق لك التفكير في أنه قد يكون هناك آخرين كثيرين لديهم موقف معاكس – نشأوا في بيئة مُلحدة علمانية واكتشفوا لاحقاً أن بإمكانهم الإيمان بالله؟ هل تمنح مثل هؤلاء الحرية لفعل ذلك؟ ما الذي قد تفعله إن وجدت أن ابنتك تحولّت إلى فتاة مسيحية مؤمنة بالإنجيل؟ هل ستتبرأ منها؟ هل ستسمح لها حتى بمثل هذا الاختيار؟ أم هل بذلت بالفعل كل ما لديك من جهد من أجل تطعيمها ضد فيرس الديانة؟ أتذكّر شاب شديد الذكاء جاء ذات مرة إلى مجموعة للتعّرف على المسيحية. عندما سُئل عن موقفه الديني قال "أنا ملحد، ولكن بدأت تساورني الشكوك". ضحكت حينها. إنه مُلحد مُرتد! شعرت بأن ذلك أمر منطقي. ربما هناك منهم أكثر مما قد تظن. عليك أن تكون حريصاً إزاء عملية رفع الوعي، فلربما تعب الناس من ثوابتك الحداثية فوجدوا الطمأنينة على النقيض تكمن في الهواء النقي الصافي المحيط بالمسيح!

ابتسمت كذلك عندما قرأت شكواك من أن الملحدين يتعرّضون إلى الاضطهاد وإساءة الفهم. أنت تقارن بين الوضع الحالي للملحدين وبين وضع الشواذ قبل عقدين من الزمان وتدّعي أنه كما كان على الشواذ أن "يخرجوا من الخزانة"

ويعلنوا عن أنفسهم، فكذلك على "المستنيرين" (الاسم المشجّع وإلى حد ما المغرور الذي تمّ صكُّه وحماية حقوق استغلاله للمُلحدين) أن يخرجوا من الخزانة ويأخذوا مكانهم في المجتمع. لم ألحظ أن الملحدين على الأخص يتعرّضون للإسكات أو إساءة التقديم في المجتمع البريطاني (أو حتى الأمريكي). في بريطانيا جميع مؤسساتنا الحكومية ومنابرنا الإعلامية ومؤسساتنا التعليمية هي بالدرجة الأولى علمانية. تلقى فعاليات الجمعية العلمانية القومية تغطية أكبر ممّا تحظى به الغالبية العظمى من الكنائس المسيحية – بالرغم من حقيقة أن معظم الجمعيات العلمانية تستطيع أن تجمع أعضاءها في كابينة تليفونات. حتى عندما تلقّى رئيس الوزراء سؤال- يبدو إلى حد ما برئ- عمّا إذا كان يصلّي، فقد سارع متحدثه الإعلامي **آلاسدير كامبل** إلى الرد "نحن لا نتحدّث في الدين". إن الإلحاد والعلمانية بدون شك هي الفلسفات السائدة بين أولئك الذين يطلقون على أنفسهم اسم "النُخبة".

لقد حظيت بميزة هائلة في أن تكون لك السيطرة الإنتاجية على سلسلة حلقات تلفزيونية خاصة بك؛ "جذور الشر كله". هل يمكن أن تخبرني متى أُتيحت لمسيحي إنجيلي الفرصة من قِبل قناة تلفزيونية قومية لإنتاج فيلم يعرض شرور الإلحاد؟ ألا تظن أنه في مجتمع ديمقراطي ومفتوح عندما يُسمح لك بعمل "فيلم تسجيلي" يهاجم مجموعات كاملة من الناس أنه ينبغي أن يُمنح هؤلاء بعض الحق في الرد؟ بالطبع لن يحدث ذلك، لأنه كما تعرف جيداً فإن هؤلاء الذين يسيطرون على منابرنا الإعلامية هم أشخاص يحملون كثير من افتراضاتك المسبقة، ويفضّلون صناعة برامج تُظهر المسيحيين إما على أنهم كهنة أنجيليكيين ضعفاء أو أنهم مُبشِّرين من اليمين الأمريكي المتشدّد يريدون شنق الشواذ. مجرد دعايات، ليست هي الحقيقة ولا المنطق، ولا تخضع لمبادئ النقاش الخلّاق، وبالتأكيد أكثر هي ليست من الإنصاف في شيء.

في لقاء للمدراء التنفيذيين بشبكة بي بي سي عام **٢٠٠٦**، أُعلن [٥] أن سياسة المؤسسة هي أن العلمانية هي الفلسفة الوحيدة التي لا بد أن يتحوّل إليها الآخرين في النهاية. الفلسفات والعقائد الأخرى يمكن التسامح معها لكن يجب ألا

---

٥ Daily Mail - ٢٤October ٢٠٠٦, Prospect Magazine – November ٢٠٠٦

يكون لها صوت حقيقي أبداً على شبكة بي بي سي. الظاهر أن البعض كانت لديهم الجرأة لافتراض أنه ربما على بي بي سي الاعتراف بأن العلمانية هي "فلسفة" وليست "الفلسفة". أتمنى أن تقوم بدعم هذا التوجّه الذي يعكس عقليات متفتّحة وتقبل التعددية.

إن إحياء الإلحاد يواجه الآن تحديات من جميع الجهات. بعد قرن من الهيمنة والسيطرة النُخبوية فقد بدأ كثيرون في العالم الغربي يفيقون على حقيقة أن الامبر اطور العلماني يمشي عاريا. يمكننا بحق أن نسمّي القرن العشرين قرن سقوط الإلحاد. هل تسمح لي باقتراح أن تقرأ كتاب ممتاز يتناول الموضوع كتبه **نيال فيرجوسون** أحد زملائك في أكسفورد: "حرب العوالم: حقبة الكراهية"؟[٦] . هو يشاركك في افتراضاتك العلمانية التطوّرية، لكن رؤيته للقرن العشرين تحمل اتهام مُذهل بفشل العلمانية و"العلم" في تحقيق السلام في العالم.

يأتي كتابك كمحاولة يائسة لتدعيم دفاعات الإلحاد المُتهاوية. للسخرية، يذكرني ذلك ببعض شخوص الكنيسة الذين عندما يجدون أنفسهم وسط مواجهات عنيفة وتتراءى أمام وجوههم هزائم محدقة، يقومون بإصدار كراسات دينية تبشيرية، ومقالات وكتب موجّهة لتعزيز إيمان من يؤمنون بالفعل، بدلاً من توجيهها لإقناع غير المؤمنين. "وهم الإله" يستقر جيداً ضمن هذا التصنيف من الكتابات. أنا متأكد من أنك سوف تحقق سعادة أتباعك وتعزّز لديهم الإيمان بما يؤمنون به بالفعل، ولكني أشك للغاية في أن تحدث أي تاثير ملموس بين أولئك الذين هم أقل تشبُّثاً بأرائهم، أو الذين هم باحثون حقيقيون عن الحقيقة. ما أحترمه هو أنه على عكس الكسالى وغير العقلانيين ممن ينكرون وجود الحقيقة فإنك تعترف أن للحقيقة وجود. قد تضحك إذا ساورتك فكرة أن تلك الحقيقة توجد في المسيح. لكني أظل شخص متفائل. فأنا لا أؤمن في الحقيقة وفقط، بل وفي قدرة الله والروح القدس على إطلاق الاستنارة حتى في أكثر العقول ظلمة. لذلك فهناك أمل لكل منا على السواء.

المخلص ديفيد.

الرسالة الثانية
أسطورة الجمال غير الربّاني

عزيزي د.داوكنز

أشكرك من أجل إدراج رسالتي على موقعك الالكتروني. لم يكن ذلك متوقعاً تماماً كما لم أتوقّع ردود فعل بعض من زملائك الملحدين كما تشهد بذلك صفحة المشاركات. بالرغم من أن بعض تلك الردود كانت ذكية وعميقة وعبّرت عن الخلاف بطريقة بنّاءة ومُحفّزة، فإن عدد مدهش منهم أجاب بكل عدائية المؤمنين الذين تعرّض كتابهم المقدّس إلى السب والقذف. ظننت أنني رأيت النقد اللاذع من قبل، لكن ذلك كان يفوق كل ما رأيت.

كذلك فقد وجدت من المثير مشاهدة جولتك الأمريكية[٧]. لقد فاجأني أن هناك عدد من أوجه التشابه بين جولتك وبين بعض الجولات التبشيرية التلفزيونية الحاشدة. لديك اجتماعات جماهيرية للمتحوّلين إلى الإلحاد (والذين تُحكم السيطرة

---

٧ أنظر موقع www.richarddawkins.net

عليهم تماما). وتستهزئ بأولئك الذين لا يشاركونك نفس وجهات النظر، كما ترفض الانخراط معهم في أي نقاش بنّاء. تُشيطن هؤلاء ممّن لا يؤمنون بنفس أفكارك. أنت (أو المدافعين عنك) تتشدّقون بكون كتابك الأكثر مبيعاً على قائمة النيويورك تايمز وتشجعون الناس على الخروج وشراء نسخ منه وإهدائها للأصدقاء، بل وحتى في الحملة الأخيرة، تشجّعونهم على شراء نسخ وإهدائها للسياسيين. بل وتشجّعون مُحبّيك على مشاهدة آخر فيديو لك على اليوتيوب بعنوان "داوكنز يدمّر الأصوليين البُلَهاء". يمكنني أيضاً الحصول على نسخ ذات أغلفة خاصة، وشعارات مختلفة لصفحات الانترنت. إنه لأمر مشوّق، تماماً بقدر ما يمكن لتلفزيون الواقع أو "تلفزيون الله" أن يكون مُشوقاً، لكن كل ذلك لا يكاد يؤسس لجدل منطقي أو نقاش عقلاني.

على أي حال، فلنترك جانباً تلك الفعاليات الترويجية المُسيّسة دون أن ننغمس في وجهة النظر التي ترى أنه مادامت الوسائل مُثيرة للريبة فإن الرسالة ولا شك خاطئة. ولنذهب إلى الفصل الأول من كتابك. إنه بداية عظيمة، حسن الكتابة، حسن الجدال، فيه معلومات مفيدة، ولدهشتي هو مُقنع للغاية. ربما هو الفصل المفضّل لديّ. هناك الكثير فيه مما يمكنني التوحّد معه، بل وحتى أن أقول "آمين"! لكن مع ذلك، وبالرغم من أن بإمكاني قبول، بل والاقتناع ببعض، المقدّمات التي أشرت إليها، فأنا أقل من مقتنع ببعض الاستنتاجات التي توصّلت إليها.

- حس التساؤل والاندهاش

هو مفهوم أساسي تناولته بصورة عبقرية. فكثير منا مروا بنفس التجربة. أتذكّر وأنا صبي كيف كانت النجوم ترافقني على الطريق إلى المنزل عبر مسطّحات (موريش مور) الخضراء في مرتفعات اسكتلندا. كنت أعيش على قمة منحدرات (نيج) حيث كثيراً ما كنت أجلس أتأمل خليج (كرومارتي فيرث) – خليج صغير يقود إلى البحر الشمالي، وكيف كانت تصيبني الدهشة العارمة إزاء مدى جمال وتنوّع الطبيعة؛ طيور النورس، البحر الأزرق، النبات الأرجواني، نبات الوزال الأصفر، الفقمات، بل وحتى حيتان الدولفين من آن لآخر. بدا لي المشهد وكأنه من الجنة (حتى مع وجود المدفع المتآكل القابع في

أعماق المنحدر منذ الحرب العالمية الثانية). إذا لم يعتريك حس التساؤل في مشهد كذلك فبالتأكيد ليست لديك روح. من الواضح أن كانت لك تجربة مشابهة – وأظن أن معظم البشر مرّوا بتجربة كتلك. لكنك تفسّرها بشكل مختلف.

أنت تعتقد أن الايمان بأن الله خلق تلك الروعة وأنّه مسئول عن وجودها هو إلى حد ما تقليل من شأن جمال الطبيعة وتبديد لحس الاندهاش والتساؤل. عليّ أن أعترف أن تلك الفكرة ليست بالشيء الجديد بالنسبة لي. فقد حاولت بجدّية شديدة أن أرى الأمر بنفس الطريقة. بدا لي أنا أيضاً أن ألهة الديانات المختلفة هم إلى حد ما من الضآلة والتفاهة أمام مثل ذلك الجمال والنعمة. وهنا تكمن المشكلة. هم بالفعل كذلك. لكن في نفس الوقت لم يمكنني استبدالهم بالبشر. إن الاقتباس الذي كتبته من كلمات دارون هو مثال للغرور الإنساني في أسوأ صوره:

"وبالتالي، من صراع الطبيعة، من المجاعة والموت، فإن أكثر شيء سامي بإمكاننا أن نتخيّله، وهو بالتحديد إنتاج حيوانات أعلى مرتبة، يأتي بعد ذلك مباشرة."

هل هذا هو الأمر فعلاً؟ هل البشرية هي أسمى عنصر يمكننا تخيّله؟ أتذكّر ماقاله رجل صالح ذات يوم، أنه لو لم يكن المسيح حقيقة لقام بعبادة الرجل الذي ابتكره! هل عليّ الاختيار بين أوثان من صنع الإنسان وبين البشر ليكونوا ذروة الخلق؟ في الحقيقة لم أجد أي من الخيارين مُرضيا. لكن من أين جاء كل هذا الجمال؟ ولماذا أستشعره؟ لا يقدّم أحد إجابة أفضل من كلمات سليمان الحكيم، أكثر الرجال حكمة على مر العصور:
"الله جعل كل شيء جميل في وقته. وكذلك جعل الخلود في قلوب الرجال. ومع ذلك فليس بإمكانهم سبر أغوار مافعله الله من البداية للنهاية" سفر الجامعة **٣:١١**[٨]

لقد حاولت بجد أن أكون مُلحداً، أو على الأقل أن أكون لا–أدرياً[٩]، لكنني فقط لم أستطع تحقيق ذلك. في واحدة من

---

٨ Ecclesiastes ٣:١١

٩ الاعتقاد بأن وجود الله وأصل الكون أمور لا سبيل إلى معرفتها

ليالي عيد الميلاد صلّيت إلى الرب الذي لم أكن على يقين حتى أن له وجود: "يارب، إذا كنت هناك فأظهر لي وسوف أخدمك ما تبقى لي من حياة". لكن لم يأتني صوت قادم من الجنة. ولا بريق من السماء. وبقدر ما كنت أرى فإن أحدا لم يستجِب لصلواتي– حتى كان واحداً من أيام الأحد حين قررت رغم كل شيء أن أذهب إلى الكنيسة. توجّهت إلى كنيسة مشيخية اسكتلندية صغيرة بجوار البحر، أسفل نفس تلك المنحدرات. بينما استمعت إلى غناء الأناشيد الدينية من الإنجيل وسمعت صوت أمواج البحر تتكسّر على جدران الكنيسة، أدركت فجأة مدى حماقتي. بالطبع الله موجود. فلا شيء آخر مفهوم. لا يمكنك تفسير الجمال، ولا الشر، الخلق أو البشرية، الوقت والمكان، دون الله. أو على الأقل يمكنك اللجوء لتفسير ما، لكن بالنسبة لعقلي فقد بدا أن التفسير المادي الملحد هو – عاطفياً وروحانياً وقبل كل شيء عقلياً – تفسير قاصر وعاجز عن إقناعي. في الحقيقة، يستلزم الأمر قدر كبير من اليقين لكي تكون ملحداً.

بالمناسبة، ينبغي أن أشير هنا إلى وجود رابطة مدهشة بين العلم والإيمان. عبر المنحدرات ومن الجانب الآخر من خليج (كرومارتي فيرث) توجد قرية صغيرة اسمها كرومارتي. قبل حوالي **١٥٠** سنة، عاش هناك رجل استثنائي اسمه **هوج ميللر**. كان عبقرياً. كانت لديه نفس موهبتك في الكتابة وكذلك كان واحداً من الآباء المؤسسين للجيولوجيا الحديثة. لازالت كتبه مثل "الحجر الرملي الأحمر القديم"[١٠] و"على خطى الخالق"[١١] كتباً كلاسيكية. كان على قناعة مُطلقة من أن الدليل الجيولوجي يشير لوجود أرض قديمة. كان **ميللر** مستشار بكنيسة Free Church ومحرر لجريدتها وناشط سياسي قوي في مجال الدفاع عن فلاحي المرتفعات الذين تعرّضوا للتهجير من منازلهم (مثال آخر لما تُسمّيه جين الأنانية وهو يعمل). أحب **ميللر** العلم ووجد فيه، ليس تناقضاً مع الإنجيل، ولكن تكملة له.

لقد كتبت اقتباساً عمّا قاله **كارل ساجان** في كتابه "النقطة الشاحبة الزرقاء"[١٢] وهو اقتباس جدير بإعادة ذكره هنا:

---

١٠ The Old Red Sandstone

١١ In the Footprints of the Creator

١٢ Pale Blue Dot ,Ballantine Books - ١٩٩٧

"كيف يمكن ألا تنظر تقريباً أي ديانة كبيرة إلى العلم فتستنتج أنه "أفضل مما توقّعنا! الكون أكبر مما أخبرنا به الأنبياء، أضخم، أكثر دقة، أكثر رشاقة؟" بل على العكس يقولون: "لا، لا، لا! إن إلهي صغير وأريده أن يظل كذلك. إن أية ديانة، قديمة أو جديدة، تؤكّد على عظمة الكون كما يظهرها العلم الحديث قد تكون قادرة على فتح آفاق جديدة من التبجيل والدهشة لا تصل إليها المعتقدات التقليدية."

هذا رائع. أود أن أصرخ "هالالويا" لولا أن يصمني ذلك بأنني متديّن مُتشنّج. على الكنيسة المسيحية العصرية في الغرب أن تعقد يديها وتعترف بالذنب. فكثيراً ما قلّصنا الله إلى معادلة، والإيمان إلى نظام، والعبادة إلى استعراض مسرحي جالب للسعادة والإحساس الجيد. إلهُنا صغير للغاية. ولكن ذلك لأنه إلهنا نحن وليس الإله المذكور في الإنجيل.

ليس كثيراً بعد أن أصبحت مسيحياً أن بدأت فهم وتقدير كتابات **جون كالفين** وآخرين ممن تبعوا نفس الخط في تناول التعاليم الإنجيلية. أحببت ذلك للغاية. صوّروا رب الإنجيل بعظمة وقوة وعمق ومجد ومُلك واستحقاق للتمجيد وأنه خالق هذا الكون المعقّد الفسيح المدهش. لم يضعوه في صندوق، بل وادّعوا أنه طبقاً للتعريف فلا يمكن للرب أن يتصندق. وهو ما دفع رجال مثل عالم اللاهوت الاسكتلندي **توماس شالمرز** في القرن التاسع عشر إلى أن "يفكر خارج الصندوق". حتى أن **شالمرز** ألّف كتابه الأكثر مبيعاً عنوانه "الخطاب الفضائي"[١٣] والذي يناقش إمكانية وجود حياة على الكواكب الأخرى.

عندما تحوّلت إلى المسيحية ظننت أنني اكتشفت كل شيء. كان لديّ الرب في صندوق. ولديّ المسيح. لكن بينما نموت ونضجت أدركت أنه على النقيض من كوني مُسيطر على حوض مياه اللعب، فكل ما فعلته كان غمس أصبع قدمي في محيط المعرفة والحب والكينونة الإلهية. إن الإله الصغير المُتصندق يخلق موقف عدائي من أي شيء وكل شيء لا يمكن أن يحتويه الصندوق، بما في ذلك العلم. لكن الإله غير المتصندق، إله الإنجيل، يسمح لنا – بل ويشجّعنا – على اكتشاف خلقه، على اعتلاء المرتفعات وغمر الأعماق. أفكّر في عالم الكيمياء الحيوية اللامع الحائز على جائزة

والذي سمعني ذات مرّة أتغنّى بترانيم عظمة الرب في تجلّيات النجوم ثم أتى ليحدثني بعدها. أخبرني أنه في عمله فإن دراسة بعض أصغر الأشياء المرئية التي يعرفها البشر تجعله يرى عظمة وروعة الرب.

يحاول بعض أتباعك مقارنة العلم والمسيحية مقارنة سخيفة 'لقد منحنا العلم السيارات، محمصة الخبز، سفينة الفضاء.. الخ، فمالذي سبق وأن منحته لنا الديانة؟' إنها مقارنة سخيفة لأنهم يحاولون تجسيد مقارنة خادعة بين العلم والمسيحية، وكأن المسيحية منظومة عقيدية والعلم منظومة عقيدية أخرى. لا. إنّ الاختلاف لا يخضع لمصطلحات العلم ولكنه يخضع لمصطلحات الفلسفة والاعتقاد. خطر هذا الموقف الذي تروّج له هو أنك تريد ضرب إسفين بين العلم والديانة ليوافق الصراع الناشئ فلسفتك (بالطبع يقوم بذلك أيضاً بعض الاصوليين الدينيين). لكن موقفك فلسفي وليس علمي. لأضع الأمر ببساطة أكبر، فإن السبب وراء كونك مُلحداً ليس أنك توصلت للإلحاد عن طريق الحقيقة العلمية، ولكن لأن تلك هي فلسفتك. أنت تستخدم العلم للتدليل على موقفك، ولكن هناك أيضاً بين المتدينين من يستخدمون العلم كذلك لتبرير موقفهم. القضية ليست قضية العلم ولكنها الافتراضات المسبقة التي تقدّمها إلى العلم.

اسمحلي بإنهاء هذا القسم عن حس التساؤل والدهشة باقتراح أن بمقدورك فعل ما هو أسوا بكثير من قراءة واحد من كتابات أعظم العقول الفلسفية التي أنتجتها أمريكا– **جوناثان إدواردز**. إذا كان هناك بين البشر من تمكّن من رؤية لمحة من عظمة الرب فقد كان **إدواردز**. خذ هذا الاقتباس من كتابه The Nature of True Virtue:

"حيث أن الرب هو بلا حدود أعظم كينونة موجودة، لذا فإنه ... الأكثر جمالاً وتميّزاً بلا حدود. كل الجمال الذي يمكننا رصده في جميع المخلوقات ليست سوى انعكاس للإشراقات المنبعثة من هذا الوجود والذي لديه اكتمال لا نهائي من النور والعظمة. إن الله هو أصل كل جمال وعظمة"[١٤].

- الحس الديني

الآن دعنا ننتقل إلى استخدامك لمصطلح "ديني". أتفق مع معظم ما جئت به في هذا الصدد. الأمر كله يدور حول ما نعنيه ونفهمه من مُصطلح "الرب". أقبل تماماً أن كثير جداً من المسيحيين مُذنبون بخطيئة الاقتباس الانتقائي، وتدوير الخرافات من أجل إثبات أن هذا الشخص المشهور أو ذاك إمّا أنّه كان مسيحياً أو أنه تحوّل إلى المسيحية في لحظات حياته الأخيرة. دليلك فيما يخص **أنشتاين** يبدو لي مُقنعاً للغاية، وهو ما يعني أن عليّ أن أكون حريصاً إزاء استخدام اقتباسات مثل "العلم بلا إيمان كسيح، والإيمان بلا علم أعمى". بالرغم من اقتناعي بأنك على صواب إزاء ذلك وإزاء كثير من الأشخاص "المتدينين" والذين يستخدمون مصطلح "الرب" فقط كمرادف لمشاعرهم " الدينية" الشخصية وحس التساؤل والدهشة لديهم، ومع ذلك فلست مُقتنعاً أن حس التساؤل ذلك لا يزيد عن كونه نتيجة لوجودنا الطبيعي وبيئتنا الطبيعية.

أنت تدّعي أن الطبيعيون[١٥] (أنصار الفلسفة الطبيعانية) يؤمنون بأن كل شيء مادي. أفكّر في كيميائي شديد النباهة عندما واجهته وجهة النظر تلك اعترف أن الحب، والكراهية، والجمال، والروحانية وما إلى ذلك هي كلها في النهاية "مجرّد" تفاعلات كيميائية. يبدو لي ذلك منظوراً مُتطرفاً للكون وللحياة الإنسانية يثير الإحباط الشديد. بالطبع لو كان بمقدورك إثبات أنه لا وجود لرب والتدليل على ذلك فأظن أنني كنت لأتعايش مع ذلك الواقع. لكنّك لم تتمكّن من فعل ذلك. رأيك أن الكون هو المادة فقط هو فرضية لا تزيد عن بناء يقوم على الاعتقاد في صحة فكرة ما لمجرد الرغبة في أن تكون صحيحة. في الحقيقة إنّ موقفك هو نوع من "علم الفجوات": أنّ هناك أشياء تلاحظها ولا تستطيع أن تجد لها تفسير علمي، ولا تودّ أن تلجأ إلى تفسيرها روحانياً (لأن لديك فرضية مسبقة بأن لا وجود لشيء سوى المادة)، لذلك فبدلاً من أن تترك أية فجوات تخشى أن يتسلل من بينها أيّة إله صغير، فأنت تمُط معارفك العلمية بحيث تُصبح نظرية شاملة تحوي داخلها تفسير كل شيء وكأنّها صندوق— ثمّ تستبعد بكفاءة أي شيء لا مكان له في الصندوق. للسخرية، هو نفس ما تتّهم المسيحيين بفعله مع الله. تتهمهم بـ "صندقة" الله ثمّ تخاطر بفعل نفس الشيء مع العلم،

---

١٥ pantheism

فتقوم بتشييد رؤية بشرية صمّمتها لاستبعاد الله وأقمتها على فرضياتك المناهضة للدين، لكن في الحقيقة ينتهي بك الأمر إلى صندقة العلم.

قد أتفق بشكل عام مع الجزء الذي تتناول فيه استخدام مصطلح "الرب"، إلا أنّ هناك بعض ملاحظات لا تستقيم. على سبيل المثال، فأنت تدّعي أن "فكرة أن الدين مجال حقيقي يمكن للواحد فيه أن يدّعي الخبرة والتخصّص. هي فكرة ينبغي ألا تمر دون مُساءلة". هنا تكاد كراهيتك للدين تتجاوز الحافة. بالوضع في الاعتبار أن الغالبية العظمى من سكان العالم على مدار القسط الأعظم من التاريخ الإنساني كانوا ولا زالوا أصحاب ديانة، فيمكن للواحد الاعتقاد بأنّ الدين هو بالفعل مجال قابل للدراسة، وأن هناك البعض ممن قد يدّعون درجة ما من التخصّص فيه. في الواقع فإن استبعادك لأي شخص يدّعي التخصّص الديني هو خدعة أنيقة تسمح لك بانتقاد الدين والكتب الدينية دون أن يكون عليك اللجوء لأي نوع من التخصّص الأكاديمي ودون الحاجة لمراعاة القواعد الأكاديمية، لأنه قبل كل شيء فالدين ليس مجال للتخصّص. وبالتالي يسمح لك ذلك بالمرور الآمن بتصريحات تبسيطية غير دقيقة مثل "إنّ الإيمان بوحدة الوجود[١٦] هو إلحاد متأنق". إنّ مقارنة تعريفك المسبق للشخص الملحد على أنّه شخص مؤمن بالمذهب الطبيعي (الطبيعانية) يتمسك بفكرة أنه لا وجود لشيء سوى المادة، سوف يُوضّح لك أنّ كثير من هؤلاء الطبيعانيين ليسوا مُلحدين. هم على العكس يؤمنون بأرواح وألهة مُتعددة، وبوجود أشياء غير مادية.

لاحظت كذلك أن لديك موهبة مثيرة للاهتمام في استغلال الاقتباسات. فأنت تُقدّم اقتباسات من رسائل لشخص أمريكي رومان كاثوليكي ولآخر هو رئيس جمعية تاريخية. أنا متأكد أنهما ليستا الرسائل الوحيدة التي كتبها أشخاص اختلفوا مع أراء أينشتاين، لكنهما كانتا الرسالتين اللتين اخترتهما. لماذا؟ لأنهما تسمحان لك بأن تشير أو تؤكد على أن المسيحيون هم إمّا جهلاء أو أنهم "مُتخلّفون أخلاقيا وبديهياً". إنها الطريقة الكلاسيكية لتفنيد الفكرة بتجهيل الخصم : (أنظر إلى أي حد هؤلاء المسيحيون هم أغبياء، وبالتالي فإن الله لا وجود له)!. أنا كشخص مسيحي لا يمكن أن أقبل لا

---

١٦ pantheism

اللهجة ولا المحتوى لأي من تلك الرسالتين، ولا أعرف من قد يقبلها من بين المتخصصين المسيحيين سوى قلائل (لكنك بالفعل قمت بتغطية قواعدك بادّعاء أنه لو وجود لشيء مثل التخصّص الديني المسيحي!). على الأخص ذلك الاقتباس من الرسالة الذي استشهدت به – رغم كونه خاطئ من الناحية الإنجيلية: 'كما نعرف جميعاً، فإن الديانة مبنية على الإيمان وليس المعرفة'. سوف أدّعي عكس ذلك – أن الإيمان دون معرفة أعمى وغبي. الإيمان الإنجيلي هو إيمان بشخص. إذا لم تكن تملك المعرفة حول ذلك الشخص لا يمكن أن يكون لديك إيمان به.

لكن كيف كنت لتشعر لو أنني أخذت بعضاً من التعليقات السخيفة الجاهلة من بعض الملحدين على موقعك واستخدمتها كمثال للتدليل على أن الإلحاد يصيب العقل بالتعفُّن؟ لن يكون ذلك بالطبع سلوك مُنصف ولا أمين. خاطرة أخيرة. أنت تدّعي أنك كافر مُتديّن. يبدو لي ذلك وكأنه أسوأ ما في كلا العالَمين. أنا أكره الديانة. أعتقد أن ماركس كان إلى حد ما على صواب – فقد استُغلّت الديانة مراراً وتكراراً كأفيون للشعوب. باسم الدين ارتُكبت الكثير من الشرور والآثام. من السخرية أن أؤمن بأن الدين قد جاءنا بالكثير من الضرر. لكني رُغم ذلك أؤمن. أؤمن برب الإنجيل. أجد أن تجلّيه سواء في الخليقة أو في النص المقدّس يمتلك قوة تحريرية هائلة، ويتناغم مع الحقائق بقدر ما أستطيع أن أتبينها. ربما أنت تطمح لكي تكون كافر متديّن. أنا سعيد بكوني مؤمن غير مُتديّن.

المخلص ديفيد

الرسالة الثالثة

أسطورة عقلانية الإلحاد وقبوله للآخر

عزيزي د.داوكنز

أود أن أعتذر إن كنت بأي شكل قد اسأت فهم موقفك. فهذا ليس مقصود. أنا أختلف مع ما تقوله بالفعل، لذا فمن غير المنطقي أن أكتب عن أشياء لم تقلها. ومع ذلك فأنا أزداد يقيناً أن موقفك مبني بالأساس على موقف ديني وفلسفي وليس على موقف توصّلت إليه عن طريق العلم. يبدو أنّ ذلك أيضاً هو موقف كثير من زملائك الملحدين على الموقع، والذين كان رد فعلهم للنقد صورة طبق الأصل لرد فعل بعض الأصوليين (المتطرّفين) المتدينين الذين عرفتهم.

لديك أطروحة مركزية. تقول أن العلم يثبت – بصورة متناهية – أن الله لا وجود له وأن الإيمان به وهم. لكنك تحيط تلك الأطروحة بجيش من البراهين الصغيرة، مثل طبيعة الديانة، الأخطاء المزعومة في الإنجيل، التمظهُر الديني في الكنيسة

.. الخ. لتلك الحجج أثر فيما يبدو في تعزيز حجّتك الأساسية بينما في ذات الوقت تسمح لمؤيديك بالشكوى عندما يتم ضحد تلك الحجج الثانوية، قائلين أن وجهة نظر المُشكّك فيها غبية وغير منطقية لأنه لا يخاطب الأطروحة المركزية.

يودّ بعض المسيحيين خوض الجدال بنفس الطريقة – بالطبع الله موجود ومن ينكر وجوده شخص جاهل، غير عقلاني...الخ. مما يجعلنا ننتهي بحوار الأعمى مع الأصم. وهو أمر غبي حقاً. ما أحاول فعله في هذه الرسائل هو مخاطبة كل واحدة من الحجج الثانوية بالترتيب الذي قدمّتها به في الكتاب. وبينما نفكّك تلك الحجج نستطيع أن نرى أن كثير منها إمّا هو وسائل تشتيت لا علاقة لها بالموضوع، أو أنّها ببساطة خطأ. مما يتركنا في النهاية مع الجوهر الرئيسي في أطروحتك، والذي بتخليصه من بين تلك القشور، يبدو في النهاية عارياً ودون أي دليل حقيقي. عندها يظهر الامبراطور الملحد بلا ملابس.

قبل سنوات عندما كنت طالب في جامعة إدنبرة اشتركت في مناظرة مع أعضاء الجمعية النسوية الطلابية. ترك ذلك لدي انطباع عميق. بين البراهين 'العقلانية' الأخرى التي تؤكد أنه لم تعد هناك حاجة للرجال، كانت الحُجّة الكلاسيكية: "أن شكل دخان الانفجار النووي هو الرمز الذكوري المجرّد، وبالتالي فإن كل الرجال هم أشخاص أقل من لُطفاء' (أعدت صياغة الجملة من أجل بعض التهذيب!). حتى أنهم في لحظة ما ألقوا بالدقيق والبيض في اتجاهي أنا وزملائي، صارخين بأننا (خنازير ذكورية عنصرية) فقط لأننا أشرنا إلى أن هناك دور للرجال على هذه الأرض. كان الأمر ليكون مرحاً لولا حقيقة أن بعضهنّ صدّقن بالفعل الغلو والجنون الذي كان يتدفق من بين ألسنتهن. أتساءل إن كانت قد مرّت بهم تجارب سيئة مع رجل أو آخر فأصبح ذلك ينعكس فيما بعد على كل الرجال في صورة فلسفة نسوية راديكالية. تملّكني شعور الديجافو وأنا أتصفح موقعك الالكتروني. أخشى أن كثير من الملحدين يعملون من نفس المُنطلق : منطلق تجاربهم الشخصية، كما يفعل بالطبع كثير من المسيحيين بما فيهم أنا. ومع ذلك فلا شك عندي أنك تدرك أن التجارب الشخصية وإن كانت عامل مهم، فلا يمكن أن تكون العامل الفيصل في إقرار الحقيقة الموضوعية. مرّ الكثيرون بتجربة سيئة ما مع الديانة، ولذلك فهم ينظرون من خلال عدسة تلك التجربة إلى كل ديانة وكل شخص مُتديّن. وعندما يظهر

شخص مثلك ويقدّم ما يبدو كتبرير عقلاني لا يقبل الشك، فإنهم يتمسّكون به كما يتمسّك السِكّير بزجاجة الخمر. عندها لا تصبح مشاعرهم مُبررة وفقط بل إنهم يجدون أنفسهم جزء من "النُخبة الذكية" أو "الوعي الأعلى". لكن المشكلة تكمن في طبيعة الحجج التي تستخدمها والكيفية التي تتناول بها موضوع ما.

لقد تلقيت عدة شكاوى من بعض أتباعك أنني لم أتناول بعد السؤال المحوري – بالتحديد وجود الله – في رسائلي السابقة. قالوا لي "فلتبدأ"، "أثبت ما تقوله". ثم يشكون من أنني أتناول موضوعات ثانوية بالرغم من أنك تحدثت عن تلك الموضوعات في كتابك. مايفعلونه هو بمثابة معادلة بسيطة لكنها ملتوية. يدّعون أنه لا وجود سوى للمادة، وأن أي دليل لا بد أن يكون مادّي لكي يمكن اعتباره دليل مقبول. وبالتالي هم يريدون مني إثبات وجود الله كمعادلة كيميائية. يقولون "إذا لم تستطع فعل ذلك فإنه لا وجود لله". وهو ما يخلق حلقة جدلية مثالية. لكنها تتكسّر على مستويين. الأول هو أنّ الفرضية المُسبقة والادّعاء أو الجزم بأن كل شيء موجود إمّا له وجود كيميائي أو أنه نتيجة تفاعل كيميائي هو ادّعاء لا يمكن إثباته. والثاني أنّه جزم لا يتفق مع الحقائق الملحوظة من حولنا. في الحقيقة يستلزم الأمر قدر كبير من الاستسلام اليقيني قبل أن يمكن للواحدأن يعتقد بصدق أنّ الدين هو مجرّد تفاعل كيميائي، والجمال مجرد تفاعل كيميائي، والشر كذلك، والحس الإلهي أيضا. أكثر من ذلك فإن التبعات المنطقية لهذا الاعتقاد كارثية. حيث تنتهي بنا إلى سخافة أن يكون الإنسان نفسه هو الإله، باعتباره أكثر تفاعل كيميائي متطور.

كما أشرت من قبل ، فإن معظم كتابك لا يسعى إلى إثبات الفرضية المحورية "كل شيء كيميائي"، ببساطة شديدة لأنها فرضية لا يمكن إثباتها. ولذلك فمن أجل أن تحمي وتعزز يقين أتباعك من الملحدين وتشجّعهم على الخروج إلى النور، تفعل شيئين: الأول أنك تدافع عن الإلحاد باتهام الدين أنّه يؤدي إلى العديد من التبعات السلبية. والثاني أنك تلجأ للهجوم – بتسخيف والاستهزاء بـ والتقليل من شأن المعتقدات التي يحملها هؤلاء ممن لا يحملون نفس تحيّزك المسبق. أنت تدرك أن ذلك يتسبب في اتهامك بالعنف الغرور، بل وحتى بالإضرار بقضيتك. وبالتالي تسعى للدفاع عن أساليبك أمام الملحدين الآخرين. في الواقع هناك نص تحتي مدهش في كتابك – الجدل الداخلي في الدوائر الإلحادية. يبدو وأنه

هناك جدل حول المبادئ داخل معبد الملحدين المباركين، وأنّهُ قد يؤدي إلى حالة من الانقسام. فعلى جانب هناك فصيل مبدأ الاحترام "اللُطفاء"، وعلى الجانب الآخر هناك فصيل مبدأ الاستهزاء "الأشرار". كلا الفصيلين يؤمن بأن الدين شر وأن أي شخص يؤمن بوجود الله هو شخص خرافي غير عقلاني. يقول فصيل مبدأ الاحترام أن عليك أن تكون حسن التعامل مع الناس حتى تستطيع أن تكسبهم. بينما يعتبر فريق مبدأ السخرية والاستهزاء أن ذلك اللُطف هو جُبن نابع من الرغبة في حفظ السلام أكثر منه الدفاع عن الحقيقة.

إذا كنت أنا ممن يؤمن بعقيدتك فقد كنت لأختار الجانب الذي تقف فيه. وكذلك كان ليفعل بولس الرسول والذي ادّعى أنه إذا لم يكن البعث حقيقة فإن أحداً لا يستحق الرثاء بقدر ما يستحقه المسيحيون.

''إن كان رجاءنا في المسيح هو في هذه الحياة فقط فإننا أشقى جميع الناس'' رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس **١٥:١٩** [١٧]

كذلك كان ليفعل النبي إيليا والذي سخر واستهزأ بأنبياء بعل وهم يصلّون، ويرقصون، ويقطّعون أجسامهم من أجل أن يثيروا إلههم

''وعند الظهر سخر بهم إيليا و قال ادعوا بصوت عال لانه إله لعله مستغرق في أفكاره، او في خلوة او في سفر او لعله نائم فيتنبه '' سفر الملوك الأول **١٨:٢٧**[١٨]

حتى المسيح فقد كان قاسياً على أولئك الذين يروّجون التخاريف والأكاذيب الدينية.

الجزء الأخير من الفصل الأول في كتابك يتناول سؤال الاحترام في نفس هذا السياق. النقطة الأساسية لديك هي أنك ترى أنه ليس من الإنصاف ولا المنطقية أن ينبغي التعامل مع كُل ما يُعتبر دينيا بحرص التعامل مع الكاسات الصينية

---

١٧ ١Corinthians ١٥:١٩

١٨ ١Kings ١٨:٢٧

الهشّة. تقتبس باتفاق كبير ما قاله صديقك **دوجلاس أدامز** المتوفى: "الدين.. يوجد في قلبه أفكار معينة نسميها مقدّسة أو إلهية أو ما إلى ذلك. ما يعنيه ذلك أن: "هاهي فكرة من غير المسموح لك قول أي شيء سيء حيالها؛ غير مسموح لك وكفى. لماذا لا؟ – فقط لأنه غير مسموح"". أتفق مع المادة الأساسية لحجتك. فقط لأن شخص ما يُورد أراؤه باعتبارها دينية فإن ذلك لا يجعلها في الواقع مُستحقة للاحترام. ما فشلت أنت و**أدامز** في وضعه في الاعتبار هو أن كل مجتمع ، سواء أكان مُتديّن بشكل ظاهر أم لا، لديه ثوابته. هناك أشياء غير مسموح للفرد بمساءلتها والتشكيك فيها دون أن يفقد وظيفته، أو مركزه... الخ. وذلك حقيقي في مجتمع علماني كما هو في مجتمع متديّن (بل وربما أكثر).

يمكن رؤية ذلك في مثال آخر أوردته في كتابك، المجموعات الطلابية المسيحية التي تُقاضي جامعاتها بسبب مضايقات الجامعة لهم بشأن ما تعتبره مواقف مناهضة للشذوذ. بالصُدفة أكتب هذه الرسالة الآن وإلى جواري نسخة من التايمز (عدد ١٨ نوفمبر ٢٠٠٦) والتي على صفحتها الأولى تقرير عن حادثة مشابهة في بريطانيا. على سبيل المثال، فقد منعت جامعة إدنبره الاتحاد الطلابي المسيحي من تدريس كورس عن الجنس والعلاقات لأنه يُروّج "للخوف من المثلية". اطّلعت على هذا الكورس (وعنوانه نقي Pure) ولم أجده يفعل مثل هذا الشيء (ما لم تكن مستعد للافتراض المُتعصب وغير المسئول أنه إذا لم يتّفق شخص ما مع فكرة ما فإن ذلك الشخص يصبح أوتوماتيكياً مصاب بالفوبيا إزاء تلك الفكرة، وأنه يحمل كراهية للأشخاص الذين يتفقون معها). يشجع منهج Pure التعليمات الإنجيلية التي ترى أنّ الزواج ينبغي أن يكون بين رجل واحد وامرأة واحدة. كذلك تم حظر الاتحاد الطلابي المسيحي في جامعة هيريوت وات لأن معتقداته الاصيلة تميّز ضد غير المسيحيين وأتباع الديانات الأخرى. كذلك تم إيقاف الاتحاد المسيحي في برمنجهام لرفضهم تعديل اللائحة الداخلية للاتحاد بحيث تسمح لغير المسيحيين بالتبشير في لقاءات الاتحاد، ورفضهم تعديل أدبياتهم لتحتوي على تناول إيجابي للشواذ والسحاقيات، ومزدوجي الميول الجنسية، والمتحولون جنسياً (ويحق لي السؤال ما المنطق وراء ترك تعدد الزوجات، والميول الجنسية الحيوانية، ومُحبّي الجنس مع الأطفال؟). النقطة ببساطة هي ليست إذا ماكنت تتفق مع منظورهم الخاص للجنسوانية، ولكن إذا ما كان لهم الحق في حرية التعبير عن هذا المنظور. يبدو أن لدى بعض العلمانيين

في الولايات المتحدة وبريطانيا الاستعداد لأخذ هذ القضية حول الجنسوانية واستخدامها بالطريقة التي يصفها الروائي الإنجليزي دوجلاس أدامز. ليس مسموحاً لك أن تتناولها بالمساءلة أو أن يكون لديك وجهة نظر مختلفة ، وعندما تسأل: لماذا؟ تكون الإجابة (هكذا ينبغي أن يكون). أتمنى أن تقبل بأن يكون لدى الاتحادات المسيحية الحق في تحديد ما يؤمنون به بأنفسهم، تماماً كما هو حق التجمّعات الإلحادية، وأن شيئاً لا ينبغي إجبار الناس عليه فقط لأنه (هكذا ينبغي أن يكون).

لنتأمل مسار ثانوي آخر قُمت بالإشارة إليه. أنت تجزم بأن الصراعات في مناطق مثل أيرلندا الشمالية، البوسنة، العراق ينبغي النظر إليها باعتبارها حروب دينية وليست عرقية. بالرغم من أنني أتفق للغاية مع كون الدين أحياناً ما يكون سبب صدور أكثر التصرفات رعباً من الناس، فغالباً ما يكون الدين مُبرر أكثر منه دافع وراء الانقسامات والحروب العرقية. لقد التقيت أناس من كلا جانبي الصراع الأيرلندي الشمالي والذين هم مشاركون نُشطاء في الصدام القائم. لم يعتقد ولا واحد فيهم بأنه يمارس الشغب أو القتل من أجل "الرب". بل كان ذلك من أجل "جماعتهم" أو "قبيلتهم". أما الله فلم يكن سوى وسيلة مفيدة مُستَجلبة إلى المشهد من أجل زيادة الحماس. الجيش الجمهوري الأيرلندي IRA على سبيل المثال كان جماعة ماركسية كل ما يربطها بالكاثوليكية هو حس الانتماء إلى جماعة عرقية ما. أتذكّر الحديث مع مجموعة من الشباب في طريقهم إلى ستاد (إيبروكس)، موطن فريق (جلاسكو رينجرز)، يحملون لافتة مكتوب عليها "من أجل الله وألستر[١٩]". (للقراء الذين يتساءلون ما علاقة ذلك بالكرة أو بجلاسكو – لا تتعبوا أنفسكم – فالأمر أكثر غباءاً من أن نبدأ في تفسيره.) سألتهم إن كانوا يؤمنون بالله. كانت إجابتهم "لا ندري، ولكننا بروتستانت!" . "هل تذهبون إلى الكنيسة؟" .. "لا.. نحن نذهب إلى استاد إيبروكس. فما حاجتنا للكنيسة؟" ومع ذلك وبلا شك فسوف تستدل أنت بهذا الانتماء البروتستانتي الهش القائم على موقف سياسي وعرقي كمثال آخر على الصراع الديني. مثل ذلك حرب السُنة والشيعة في العراق والصراعات في يوغسلافيا السابقة، جميعها صراعات عرقية بالأساس تُستدعى فيها الألهة الدينية القبلية كتعزيزات لا أكثر.

---

١٩ Ulster هو اسم شائع يُستخدم للإشارة إلى المناطق الستة التي تتكوّن منها أيرلندا الشمالية

ومرة أخرى يتجلّى التضارب في المنطق الإلحادي المُستخدم هنا. من ناحية أنت تدّعي أن الألهة مجرد ابتكارات اجتماعية عند مختلف القبائل أو المجموعات البشرية. ومن ناحية أخرى تدّعي أن الديانة هي الدافع وراء مختلف الانقسامات والصراعات العرقية. فأيهما تريد؟ هل يخترع الناس الديانات من أجل أن يقاتلوا بعضهم البعض، أم أن الديانات هي التي تخلق الناس التي سوف تكره وتحارب بعضها البعض؟ لا يمكن أن يستقيم كلا الأمرين معاً – ما لم تكن شخص يقبل تعاليم الإنجيل التي تقول أن البشرية متأصلة الأنانية وأنها تميل إلى الحروب، وأنهم بنفس القدر وثنيون يسعون إلى خلق "ألهة" من وحي أخيلتهم، وأن كلا الأمرين غالباً ما يكونا متلازمين.

أنا ممتن لك من أجل استعراض قضية الرسوم الكارتونية الدنماركية والذي وجدته مسلّي إلى حد ما. أنا أيضاً لدي صورة السيدة المسلمة التي تحمل حول عنقها لافتة تقول "أقتلوا هؤلاء الذين يقولون أن الإسلام دين عنيف". كما أستنكر أيضاً جبن الصحافة البريطانية التي رفضت نشر الرسوم الكرتونية بدافع "الاحترام" و"التعاطف" مع مشاعر الإهانة والأذى التي شعر بها المسلمون. أنت وأنا نعلم أن السبب الرئيسي الذي دفعهم لعدم نشر الرسوم لم يكن له علاقة بالاحترام بل كان له كل علاقة بالخوف. صحيفة الإندبندنت على سبيل المثال لم تجد مشكلة في نشر أكثر هجوم مهين على رب المسيحية، لكنها لم تنشر تلك الرسوم. بي بي سي لم تنشر الرسوم لكنها لم تجد صعوبة في مهاجمة المسيح ونشر كاريكاتير جيري سبرينجر، لتعكس قليل من "الاحترام والتعاطف" مع حالة الإهانة والأذى التي كان على المسيحيين التعايش معها. تعرف الميديا البريطانية أن هناك اختلاف جوهري بين الإسلام والمسيحية: فبينما قد يوجد قلائل بين المسيحيين ممّن سوف يهددون بمقاطعة أو تظاهر، فليس منهم من سوف يحاول قتل هؤلاء الذين يسبّون إلهنا، فهم يعرفون تمام المعرفة أن أي تعرّض ازدرائي لمحمد سوف ينتج عنه أحداث عنف وتهديدات جدية بالقتل. على الأقل فلديك شرف (وشجاعة) الاعتراف بأن الإسلام تهديد حقيقي "بمستوى لم تصل إليه أي ديانة أخرى منذ العصور الوسطى".

بعد قولي لكل ذلك، أجد نفسي قلقاً بعض الشيء من أنك تستخدم حجة حرية التعبير لتبرير سخريتك واستهزاءك

بالدين وبالأخص بالمسيحية والمسيحيين. ليس الأمر أنه ليس لديك حق النقد، لكن أنه مع الحق تأتي المسئولية– مسئولية قول الحقيقة والاستماع إلى الآخرين، وعدم شحن مشاعر هؤلاء ممّن قد يستمعون إليك. المشكلة أن تلك السخرية ممتزجة مع الأصولية الإلحادية ومع حِدّة ولاعقلانية بعض من مؤيديك تتطوّر إلى حالة من الإقصاء والاضطهاد. إن الدول الإلحادية الوحيدة في العالم (دولة ستالين في روسيا، دولة ماو في الصين، دولة بولبوت في كامبوشيا، ودولة هتلر في ألمانيا) كانت أكثر الدول التي عرفها العالم شراسة وقسوة. إن الأصولية العلمانية الملحدة تكاد في رأيي تكون أكثر إقصاء وقمع من أي موقف ديني.

من ناحية أخرى، فأرى أن المسيحية الإنجيلية هي أكثر رؤية عملية وتسامحية موجودة في العالم. لماذا؟ لأننا لا نحتاج إلى فرض أراءنا بالقوة (في الحقيقة نحن ممنوعون من فعل ذلك). لا نحتاج إلى استبعاد المعرفة لأن كل الحقائق هي حقائق ربّانية. وفي النهاية لا نشعر بالتهديد. نحن غير مهتمّين بالسيطرة السياسية (أو على الأقل لا ينبغي أن نكون) لأننا ندرك أن أسلحتنا ليست أسلحة من صنع هذا العالم. نحترم كل كائن بشري لأنه مخلوق على هيئة الرب. ومثلك نؤمن بأن علينا أن ندافع عن أراءنا. أنا لن أقبل بمحمد كنبيّ فقط لأن دين ما يخبرني بذلك. وبالرغم من ذلك فيجب عليّ، وسوف أحب المسلمين كإخوة في البشرية هم في حاجة إلى الرب.

فكرة أخيرة. هناك شيء يضايق بعض الملحدين جداً، وهو عندما يعِدهُم المسيحيون بالصلاة من أجلهم. لماذا نصلي من أجلكم؟ إنها ليست صلوات من نوع اقتلوا أهل عماليق (قبائل الكنعانيين والأموريين الذين سكنوا شبه جزيرة العرب. (أَنَ اذْهَبْ وَاضْرِبْ عَمَالِيقَ وَحَرِّمُوا كُلَّ مَا لَهُ وَلاَ تَعْفُ عَنْهُمْ بَلِ اقْتُلْ رَجُلاً وَامْرَأَةً، طِفْلاً وَرَضِيعاً، بَقَراً وَغَنَماً ، جَمَلا وَحِمَارا) **١**صموئيل **٢:١٥**

بالرغم من أن إغراء تلاوة مثل تلك الصلوات أحياناً ما يكون شديداً!. على النقيض فنحن نصلي أن يعمل الرب في حياتكم، وأن يكشف نفسه لكم، ويجذبكم إلى نفسه. ليس لكي نثبت أننا على صواب، ولكن لأن هذا – سواء صدّقت ذلك أم لا – هو أفضل شيء يمكن أن يحدث لإنسان. لذلك فإن صلاتنا من أجلكم هي فعل أسمى من

الحب، لأنه يتمنى لكم الخير. يخبرنا المسيح بأن نحب أعداءنا. لذا فأنا أصلي من أجلك ومن أجل كل من أصابه وهم التفكير أنه لا وجود سوى للمادة، وأن خالقهم لا وجود له. ولتسامحني.

المخلص ديفيد

الرسالة الرابعة

أسطورة الإله الشرس في العهد القديم

عزيزي د.داوكنز

على الأقل نحن نقترب من جوهر قضيتك ضد الله – "النظرية الإلهية". أتساءل بأي معنى تستخدم مصطلح "نظرية". هل بمعنى فرضية؟ تفسير مؤقت؟ أم نظرية تخضع لإثبات صحتها أو خطأها بالنظر إلى الحقائق؟ أشك في أن منظورك يقوم على أن البشرية بما لديها من "حس ديني" اخترعت إله أو مجموعة ألهة من أجل ملء الفراغات المعرفية.

بالمصطلحات المسيحية يعني ذلك أن كل من موسى وعيسى وبولس وأوغسطين ولوثر وكالفين قدموا لنا "النظرية الإلهية" لتفسير ما لا يمكن تفسيره. ثم تستمر الحكاية – فيأتي دارون بنظرية أخرى وتتكشّف لحظة التنوير فنشاهد بُطلان النظرية الإلهية . وجدتها! الله مجرد وهم. لقد تطوّرت البشرية إلى قدر أعلى من الوعي ولم يعد هناك ما تبقى سوى كتابة كتاب

يخبر الناس بذلك، ويشجّع المستنيرين على الخروج من الظل والانتظام السياسي حتى لا يمكن لفيرس الديانة ولا للطرق القديمة أن تُستخدم من جديد. تم إنقاذ العالم. الحمد لله!

المشكلة أن تلك ليست هي طريقة حدوث الأشياء. وهجومك على النظرية الإلهية لا يُجدي. ولا بأدنى حد، لأنك في هذا الفصل ترفض أن تناقشها. أنت تُعرّف "النظرية الإلهية" بأنها "وجود إنسان سوبر أو ذكاء خارق قام عن قصد بتصميم الكون وكل شيء فيه، بما في ذلك البشر"، وتخبرنا أن دليلك على بطلان ذلك هو أنّ "أي ذكاء إبداعي بالقدر الكافي من التعقيد لا يمكن أن يأتي إلى الوجود إلا كنتيجة لعملية مطوّلة من التطوّر التدريجي". وذلك بالأساس هو كل شيء. تقضي بقية **٤١** صفحة وأنت تخبرنا بالكاد أي شيء عن النظرية الإلهية. نقرأ في تلك الصفحات عن العلمانية وتوماس جيفيرسون، الإلحاد والسياسة الأمريكية، الماجستريا غير المتطابقة[٢٠] وتجربة الصلاة العظيمة، وعن أساطير رجال خضر صغار، وعن سبب اختلافك مع **ستيفين جيه. جولد**، و**مايكل روس**، واسترضائيين تطوريين[٢١] آخرين. إنه فصل مُفكك وهائم، الأسوأ في كل الكتاب، وربما هو سبب حصول كتابك على نقد لاذع. مثل النقد الذي جاء في مجلة بروسبيكت Prospect والتي عادة ما تمنحك مساحة تأييد واضحة، حيث أشارت إلى الأمر في كلمات قاسية:

"كان من الواضح لسنوات أن ريتشارد داوكنز يختزن في داخله كتاب ضخم عن الدين، لكن من كان ليتصوّر قدرته على كتابة كتاب بهذا السوء؟ لا مبالي، متشدد، هائم، ومتناقض مع نفسه، إنه كتاب لا يحتوي أي من أسلوب أو حيوية أعماله السابقة."

بدأت بهجمة قاسية ومُسبّبة على إله العهد القديم. الفقرة الأولى هي فقرة عادةً ما تستمتع بقراءتها على جمهورك، وعادة ما يتبعها تصفيق حاد. يعني ذلك لي أنك تلمِس عصب عاطفي خام في كثير من هؤلاء ممن يستمعون إليك. لديهم كراهية عميقة متأصّلة لإله الإنجيل. أجد هذه الفقرة مُسيئة للغاية — إلى الحد الذي يجعلني لا أستعرضها جميعاً هنا.

---

٢٠ وجهة النظر التي ترى أن الدين والعلم هما نطاقين منفصلين وأن العلم ليس بمقدوره إثبات أو نفي وجود الله

٢١ أصحاب محاولات التقريب بين نظرية الخلق ذات المرجعية الدينية وبين نظرية التطوّر بمحاولة إعادة تفسير النصوص المُقدّسة

الحجة التي اعتدت اللجوء إليها هي أنك لا تهينني أنا ولكنك تهين إلهاً لا وجود له. (تصفيق من المعجبين). لكن أخشى أنك تهينني أنا. فأولاً أنت تشير ضمناً إلى أنني أؤمن بهذا الإله الشرير الشرس متقلب الأطوار. وثانياً أنت تعمل من منطلق أنه ما دمت لا توجّه إهانة مباشرة لي فإنني بالتالي لن أشعر بأية إهانة. لكن في الواقع إذا أهنت أسرتي، أو أصدقائي، أو مجتمعي فإنني سوف أشعر بالإهانة، لأن جزء من هويتي مرتبط بهم. أعتذر ولكنه جزء من طبيعة البشرية أن "الفرد ليس جزيرة منعزلة" (فيما عدا كما يشير الروائي الإنجليزي نيك هورنبي لو كان اسمه مدغشقر!). إن هويتي مرتبطة برب الإنجيل وبالأخص بالمسيح. وبالتالي فعندما تهاجمه فأنت تهاجمني. لذا فرجاء توقف عن الغطرسة.

ومع ذلك فأنا لست بالشخص الذي يعتقد أن الإهانة هي الخطيئة التي لا تُغتفر. ربما استحققت لنفسي تلك الملاحظات المُهينة. إذا كان ما تقوله صحيحاً فلربما استحققتها. لكن تصويرك الساخر لإله العهد القديم ولمسيح العهد الجديد هو مجرد تصوير ساخر. كالعادة هو يحتوي جزء من الحقيقة، لكنه تعرّض لما يكفي من التشويه حتى أصبحت الحقيقة الكامنة فيه بلا معالم ملموسة. عندما أقرأ العهد القديم أجد إلهاً رائع –إله رحمة وعدل وجمال وقدسية وحب. إله يهتم بشدة بالفقراء، والناس، وجميع المخلوقات. والمدهش أنه نفس إله العهد الجديد!. أدرك أن هناك مشكلات وصعوبات، لكن ذلك مردّه إلى تصويرك الساخر المُبالغ فيه. إذا تأملت التعاليم والمبادئ الربّانية في كل من العهد القديم والجديد يمكن أن تصل إلى صورة أكثر واقعية.

على سبيل المثال، فواحدة من شكاواك إزاء الرب هي أنه رب غيور. تلك حقيقة، لكنه ليس غيوراً على منوال وحش شكسبير الغيور ذو العيون الخضراء. الله غيور بقدر ما تكون المرأة غيورة على زوج ينام مع نساء أخريات، على منوال ما قد أكون غيوراً عندما أفرض الحماية على أطفالي. الأمر يتعلق بالحماية، الاهتمام، والتكريم، وليس بالحسد السلبي. من الصعب تصديق أنك غير مدرك لهذا الفارق. اعتراضي هنا على أن وصفك لإله العهد القديم لا ينسجم مع الوصف الذي يقدمه العهد القديم نفسه. مثلاً هل تنسجم العبارة التالية مع وصفك؟

"الرب مُجري العدل والقضاء لجميع المظلومين. عرف موسى طرقه وعرفت بني اسرائيل أفعاله. الرب رحيم ورؤوف ،طويل

الروح وكثير الرحمة." سفر المزامير ١٠٣:٦-٨

وهناك عبارات أخرى عديدة. فقط بانتقائية شديدة تقتطع المعنى خارج إطار السياق وتتجاهل كل ماحولها من تعليمات ربّانية حتى يمكنك رسم صورة هزلية قريبة من الكاريكاتور الذي تؤمن به.

الآن بالطبع، وكما تعرف، فإن مناقشة مسألة ما إذا كان هذا الإله طيب أو شرير هو أمر غير ذي صلة بموضوعنا إذا لم يكن لهذا الإله وجود من الأساس. لمَ قد نختلف بشأن كينونة خيالية لا وجود لها؟ ويضطرنا ذلك إلى السؤال: ما الذي دفعك لبدء الفصل بهذا القدر من الهجوم الشرس على إله تؤمن بأنه غير موجود؟ هل هو مجرد هجوم عشوائي يُعبّر عن الكراهية التي تحملها نحو كينونة ربما تكون في الواقع موجودة؟ أم أنك تعرف أن المادة الرئيسية لادّعائك سوف تلقى رواج بين أشخاص تعرّضوا لنوع من الاستغلال الديني؟ أليست الحقيقة هي أنك تسعى لتحقيق رد فعل عاطفي أكثر منه عقلاني؟

عند تلك النقطة تشرع في مناقشة تعدد الألهة، الداعية التلفزيوني أورال روبرتس، والتعاليم الكاثوليكية الرومانية حول القدّيسين. لازلت أحاول أن أتبين ما علاقة ذلك كله بالنظرية الإلهية. ومع ذلك فإن لديك وجهة نظر، والتي أصبحت تتردد على ألسنة الملحدين الان في كل أنحاء البلاد: أن المسيحيين ملحدين عندما يتعلق الأمر بالألهة زيوس وثور ورع. الملحد الحقيقي يتجاوز ذلك بالإلحاد بإله واحد آخر فقط(وهو ما يطلق مزيد من الضحك والتصفيق وتأوهات الإعجاب من المعجبين). مرة أخرى فإن تلك الخدعة الرخيصة تفشل في ملاحظة أنه لا خلاف على أنّ هناك بالفعل أساطير دينية وألهة مزيّفة وأوهام في هذا العالم. كما لا تعترف تلك الحجة الواهية بأن المسيحيون يؤمنون بالمسيح لما يلمسوه من أدلة، وليس برغم وجود تلك الأدلة. رأيك هنا لا يزيد منطقية عن رجل يعلن أن ساعات الرولكس جميعها لا يمكن أن تكون حقيقية لأنه اشترى ذات مرة ساعة رولكس مُقلّدة، أو امرأة تعلن أن الحب لا يمكن أن يكون له وجود بسبب تجربة حب سيئة مرت بها. هي مجرد وسيلة جدلية لا تتعامل في الحقيقة مع جوانب الموضوع.

تواجه هنا حجة أخرى لوجود الله، وهي حجة غالبا ما أستخدمها. عندما يخبرني شخص ما أنه لا يؤمن بالله فغالبا ما أطلب منه أن يخبرني عن هذا الرب الذي لا يؤمن به. عندها يقول لي أشياء تشبه ما تقدّمه في بداية الفصل عن إله شرير، فأخبره أنني لا أؤمن بهذا الإله أيضاً. أنت على صواب أن تلك الحجة لا تجُدي نفعاً مع شخص يدّعي أنه لا وجود لله لأنه لا وجود لقوة خارقة للطبيعة (وهو موقف ظنّي بالطبع هو أيضاً غير قابل للإثبات). مع ذلك فأنت تستهلك جزء كبير من الكتاب في مهاجمة نموذج معين من الرب، وبالتالي فأنت تتيح نفسك من جديد لهذه الحُجة. الغالبية منا لا تؤمن بهذا الإله الذي لا تكف عن مهاجمته. والشخصنة التي تلجأ إليها بالإشارة إلى نماذج من المتدينين تديّن غير متوازن أو منحرف من أجل تشويه صورة المتدينين فهو أسلوب يتجاهل أن تلك النماذج ليست بالتي قد يتوحّد معها غالبية المسيحيين. إذا اكتفيت بالجدل الفلسفي حول ما إذا كان الله موجود أو لا لكان كتابك أصغر بكثير (وأقل شعبية بين أتباعك بكثير). إنما هو هجومك على صورة مُشوّهة وفاسدة من الوصف المسيحي للرب هو ما يمدّك بغالبية الإبهار المسرحي الذي تُطعّم به افتقادك للحجج المنطقية الفعلية حول ما إذا كان الله موجود من الأساس أم لا.

يقودنا ذلك إلى الحديث عن NOMA الماجستريا غير المتطابقة. تلك هي وجهة النظر التي ترى أن الدين والعلم هما نطاقين منفصلين وأن العلم ليس بمقدوره إثبات أو نفي وجود الله. أشهر منتمي لهذا الرأي هو **ستيفن جيه. جولد** والذي يلخّص في كتابه "صخور العصور: العلم والدين في كمال الحياة"[٢٢]. هذا الرأي تلخيصاً دقيقاً عندما يقول: "يحظى العلم بمكانة عمر الصخور، والدين بمكانة صخرة العصور. يدرس العلم كيف تعمل السماء، ويدرس الدين كيف تصل إلى جنّة السماء".

أنت لا تحب ذلك، وبالطبع لا تحب الثيولوجيين اللاهوتيين. إذا لم يكن بمقدور العلم إجابة سؤال ما فما الداعي إذن لسؤال اللاهوتيين – فائدتهم لا تتعدى قدر ماء ساخن مصنوع من الشوكولا. كتبت أنه "ببساطة، لا أصدق أن **جولد** يعني غالبية ما يقوله في كتابه صخرة العصور". هل تعني أنه من الجبن بحيث أنه مستعد للكذب من أجل أن يحقق قدر من المصالحة بين الدين والعلم؟ هذه تهمة خطيرة. وتهمة لا تبدو واضحة للعيان عند قراءة الكتاب. أعتقد أنه كتاب

---

٢٢ Rocks of Ages: Science and Religion in The Fullness of Life , Ballantine Books - ١٩٩٩

مدهش به قدر كبير من الأفكار القيّمة. خذ هذا على سبيل المثال: "لكني أيضا أضمّن بين زملائي العلماء بعض الملحدين المُناضلين والذين نظرتهم المحدودة للدين لا تلتقط أي شيء من رقائقه أو تنوعه". هو أيضاً يشير إلى أن هناك أناس "كرّسوا القدر الأكبر من طاقاتهم، بل وحتى من هدف حياتهم، إلى الترويج العنيف المناهض للدين إلى حد من التطرّف أنهم لا ينخرطون في حوار جاد ومحترم". ليس غريباً أنك لا تحبه!

ومع ذلك أود لو أتخذ موقع وسطي بين موقفك وبين موقف السيد **جولد**. هو يحتجّ بانفصال تام بين نطاق الدين ونطاق العلم . أنت تحتج بإلغاء تام للدين. أفترض أنا أن هناك نطاقين، نطاق العلم ونطاق الدين، وأن بينهما تداخل، وإن لم يكن بشكل كامل. هناك أشياء ليس باستطاعة العلم وربما لن يكون أبداً باستطاعته إثباتها، وهناك أشياء لا يتكلم عنها الدين. مثال **جولد** صحيح – الإنجيل لا يقول أي شيء عن عُمر الصخور والعلم لا يستطيع أن يخبرنا عن صخرة العصور – المسيح. مع ذلك فهناك أماكن يتواصل فيها الاثنان. على سبيل المثال، عندما يدّعي شخص ما حدوث معجزة بشفائه من السرطان، فالعلم قادر على الحكم ما إذا كان السرطان قد ذهب بالفعل.

أنت تخبرنا أن وجود الله هو "فرضية علمية شأنه شأن أي فرضية أخرى" وأن الله إذا أراد فإن باستطاعته الكشف عن نفسه. لكن الله قد كشف عن نفسه بالفعل. وسوف يظل يفعل. تخبرنا أنّه "حتى إذا لم يمكن أبداً إثبات وجود الله أو نفيه بشكل قاطع، فإن الدلائل والاستنتاجات المتاحة قد تُشير إلى احتمال لا يتجاوز ٥٠%". حقاً؟ وماالدافع وراء هذا الجزم اليقيني؟ وقد تقدّم العلم منذ أن قدّمت هذا التصريح غير المُتخصّص وغير المدعوم. في الحقيقة لقد نشرت جريدة التايمز في ٢٠ نوفمبر ٢٠٠٦ أن الرقم الصحيح يتعدّى الـ ٥٠% بكثير:

"إنّ الاحتمال الحسابي لوجود الله يفوق ٦٢% . هذا ما تقوله مجلة ألمانية علمية. حاول (بيتر موسلايتنر) حسم الموضوع باستخدام معادلات حسابية مُصممة من أجل تحديد الاحتمالية والمعقولية. بدأ الباحثون بفرضية أن "الله موجود" وحاولوا تحليل الشواهد مع أو ضد الفرضية في خمسة نواحي هي: الخلق، التطوّر، الخير، الشر، والخبرات الدينية. طبّق

الباحثون المعادلة لحساب الاحتمالية الإحصائية لأسئلة مختلفة مثل "ما هو احتمال حدوث تطوّر الحياة دون وجود الله؟" و"ما هو احتمال أن الله خلق الكون؟". سوف يكون استنتاجهم سبب لفرحة الكثيرين، لكن ربما ليس لريتشارد داوكنز".

هل ذُقت طعم سيفك؟

بالمناسبة، لقد أدهشني اعتقادك بأن هناك شيء يُقال عن اعتبار البوذية منظومة أخلاقية أو فلسفة حياتية. هل تقبل إذن بفلسفة تقول أن الأشخاص المعاقين يولدون هكذا لأنهم كانوا أشراراً في حيوات سابقة وأنهم فقط ينالون (الكارما)؟ الآن ننتقل إلى "تجربة الصلاة العظيمة". هذه محاولة تشتيت كاملة. طبقاً للتعريف فإن إله الإنجيل ليس إلهاً ميكانيكيا، والصلاة هي تواصل شخصي معه. فقط إن كنت تقبل فكرة الماكينة الأوتوماتيكية : (أدخِل صلواتك وسوف تخرج لك الإجابة التي تريدها) يمكن لتلك التجربة التي تصفها أن تتحقق. نظراً لأن الإنجيل لا يقول أن الرب هو ماكينة إلهية مقدّسة تستجيب لصلواتنا ميكانيكياً فإن التجربة التي تصفها بمجملها غير منطقية. لذا أجدني مرة أخرى في حيرة تدعوني لسؤالك ما فائدة ذكر ذلك على أية حال؟

كذلك ما علاقة مواقف الملحدين في أمريكا وعدم إعجابك بمسترضيّي التطوّر مثل **مايكل روس** بالنظرية الإلهية؟ ألا تعتقد أن مثل ذلك الجدل الداخلي في المعبد الإلحادي ينبغي أن يظل داخلي؟ أم هل أنا على صواب في اعتقادي أن كتابك مكتوب في الأصل ليكون كراسة حوارية للملحدين ونفير استدعاء للفاعلية السياسية أكثر منه مناقشة جادة حول وجود الله؟ ومن هنا يأتي سؤالك في منتصف الفصل – الذي من المفروض أنه يناقش "النظرية الإلهية" – والذي تقول فيه "تخيّلوا ما الذي يمكن أن يحققه الملحدون الأمريكيون إذا نظّموا أنفسهم بشكل جيد؟" (صفحة **٤٤**).

قبل أن نترك هذا الفصل الذي يثير الكآبة، علينا أن نتعامل مع حجة قديمة بالية أخرى (والتي أصبحت من معالم أي منتدى إلحادي تقريبا). عندما يُشار إلى أن الملحد لا يمكنه إثبات عدم وجود الله فإن الإجابة التقليدية الآن هي "نعم،

لا نستطيع إثبات عدم وجود الله أكثر من عدم قدرتنا على إثبات عدم وجود إله السيليستيال تي بوت[٢٣] ، وجني الأسنان[٢٤] أو وحش الاسباجيتي الطائر[٢٥]." هل تظن فعلاً أن البراهين على وجود إله الإنجيل هي على نفس مستوى براهين وجود جنّي الأسنان؟ لماذا إذن لم تكتب كتاب عن وهم جنّي الأسنان؟. إن شواهد وجود الله تقع على مستوى مختلف تماما. أشك أنك تعرف ذلك ولكن مرة أخرى فإنك تلجأ إلى الجلبة وكفى. دعني أوضح الأمر بصيغة أخرى – إذا كان الدليل الوحيد الموجود على المسيح يشبه ذلك الموجود عن وحش الاسباجيتي الطائر فأنا ولا شك وملايين آخرين لن نؤمن به. لذا فما رأيك لو نتعامل مع البراهين المؤكدة ونترك تلك التي لا دور لها سوى إعادة إعلان موقفك المُسبق مرة تلو مرة – أنه لا وجود للإله؟

في النهاية هناك شيء يمكننا أخيراً الاتفاق عليه: "إنّ الكون الذي لا وجود فيه لغيرنا سوى ذكاء بطيء التطوّر هو كون يختلف تماماً عن كون به قوة أصلية مُرشدة كان تصميمها الذكي مسئول عن وجوده". أنا أعيش في عالم خلقه إله، إله رحمة ومنطق وعدالة وخير وحقيقة وجمال وحب – الإله الذي أهدافه ومقاصده نبيلة. أنت تعيش في عالم ظهر من لا شيء، وينطلق نحو لا شيء، ويعني لا شيء. ربما في الفصل التالي سوف تعطينا سبب لذلك اليقين البارد والكئيب والخالي من الروح.

المخلص ديفيد

---

٢٣ القدر السماوي أو قدر برتراند راسيل هو فكرة اقترحها الفيلسوف برتراند راسيل ليعبّر عن أن واجب الإثبات العلمي يقع على عاتق من يدّعي حقيقة علمية بدلاً من ان يلقي بذلك الدور على الآخرين ممن لا يقبلونها. كتب راسيل أنه لو ادّعى وجود قدر يدور حول الشمس في مكان ما من الفضاء بين الأرض والمريخ فليس من المنطق أن ينتظر من الآخرين إمّا أن يؤمنوا بما يقوله أو ن يثبتوا خطأ ادّعائه. تلقت الفكرة كثير من النقد لمقارنتها بين ادّعاء وجود مثل هذا القدر وبين وجود الله.

٢٤ جنّي الأسنان هو حكاية خيالية تُحكى للأطفال عند فقد أسنانهم اللبنية حيث تدور الحكاية حول وجود جنّي للأسنان يقوم باستبدالها من تحت أوسدتهم بقدر من المال أو هدية.

٢٥ محاكاة تهكّمية أصدرها بوبي هيندرسون عام ٢٠٠٥ في رسالة مفتوحة عند موافقة لجنة التعليم في ولاية كنساس على تضمين نظرية التصميم الذكي كبديل لنظرية التطوّر في فصول العلوم. حيث ادّعى الإيمان بوجود خالق خارق على هيئة وحش اسباجيتي طائر وطالب في رسالته بتدريسه إلى جانب التصميم الذكي والتطوّر

الرسالة الخامسة

أسطورة صدام العلم والإيمان

عزيزي د.داوكنز

ها نحن نقترب من "الدليل" الذي سوف تقدّمه على أن الإله مجرد وهم. لكن قبل أن تصل إلى "برهانك العظيم" تحاول في هذا الفصل مناقشة بعض الحجج التي يستدل بها المؤمنون على وجود الله.

إن فهمك للّاهوت المسيحي سيء بشكل صادم. على سبيل المثال تدّعي أنه "إذا كان الله عالم بكل شيء، فهو يعرف بالفعل كيف يمكنه التدخل لتغيير مسار التاريخ باستخدام سلطته المطلقة – لكن ذلك يعني أنه غير قادر على يحسم تردّده بشان التدخل والذي يعني أنه ليس ذو قدرة مطلقة". أكاد لا أصدق أن بروفيسور في أكسفورد كتب حجة بهذه الصبيانية! إذا كنت تود حقاً أن تقتحم هذا النمط الجدلي فها هي بضعة أمثلة أخرى من أجلك. هل يستطيع الله أن

يخلق صخرة أثقل مما بإمكانه حملها؟ هل يستطيع الرب أن يجعل المربع دائرة؟ قد تكون تلك "أسئلة" مُسلية في حصّة مدرسية للمراهقين تتناول الميتافيزيقا (الماورائيات)، لكن أن تكون سبب للاعتقاد بأن الله لا يمكن ان يكون له وجود؟ كما قد يقول لاعب التنس العالمي السيد **ماكينرو** "لا يمكن أن تكون جاداً!" ذات مرة سألَت أستاذة بمدرسة الأحد الأطفال في فصلها "هل هناك شيئ ليس بمقدور الله فعله؟" ولما لم يكن لديها إلمام جيد بالثيولوجيا اللاهوتية فقد انزعجت عندما رفع أحد الأولاد يده وقال "نعم". شجعته على المتابعة بسؤاله: ماذا؟. كانت إجابته قصيرة ودقيقة وبليغة "الكذب". القول بأن الله ذو قدرة فائقة لا يعني القول أن بإمكانه فعل ما هو غير أخلاقي أو غير مُتّسق مع طبيعته.

مناقشتك لحجة **أنسيلم**[٢٦] الأنتولوجيكالية[٢٧] كانت مناقشة قصيرة وإلى حد كبير جاءت بشكل قد أتفق معه. رأي **أنسيلم** أن اعظم شيء يمكن أن نتخيله هو بالضرورة شيء موجود وإلا فلن يكون بإمكاننا تخيله، وهي حجة فلسفية أنيقة لكنها لا تزيد عن ذلك. مع ذلك فأنت تفسد مناقشتك لذلك بقائمة من "أدلة" غير منطقية تقتبسها من موقع godlessgeeks.com (أسعدني أن تشير إلى اختيارك لمصادرك بهذا القدر من الدقة!) وبهجوم شرس على الملحد المرتد **أنتوني فلو**.

كان البروفيسور **فلو** حتى وقت قريب واحد من أكثر الملحدين تأثيراً في العالم، لكن فيما يبدو أنه شهد حالة تحوُّل قلبي وأنه الآن يقبل فكرة أنه ما من شك في وجود مُصمّم لهذا الكون. هجومك عليه في هامش من هذا الفصل (وفي بعض من خطبك العامة) يأتي بصورة "سليطة" – بأن تشير ضمنياً إلى أن تقدّم السن لا بد وأن كان له تأثير على تحوّله من الإلحاد، وأنه ليس حقاً فيلسوف عظيم، (على نقيض برتراند راسيل والذي كان فيلسوف عظيم وحصل على جائزة نوبل) وأن حُكمه الخاطئ يتجلّى من خلال قبوله لجائزة **فيليب إيه. جونسون** للشجاعة والصدق. ألا يمكنك إتاحة

---

٢٦ فيلسوف وراهب مسيحي شغل منصب رئيس أساقفة كانتربري بين عامي ١٠٩٣ و ١١٠٩م وهو مؤسس الحجة الأنتولوجيكالية لوجود الله

٢٧ الأنتولوجيكالية هي أحد فروع فلسفة الماورائيات وتختص بدراسة طبيعة الوجود. والحجة الأنتولوجيكالية تقوم على الحدس والمنطق. يدّعي البعض أن الفيلسوف الإسلامي ابن سينا قد سبق أنسيلم في تأسيس نموذج الحجة الأنتولوجيكالية.

المجال لاحتمالية أنه قد يكون ببساطة قد غيّر قناعته؟ – ليس بسبب الشيخوخة أو بسبب أنه لم يكن أبداً فيلسوفا عظيماً، أو أنه يسعى للحصول على جائزة تيمبليتون Templeton Prize ولكن بسبب البراهين والحقائق؟ أظن أن أي ملحد يغيّر رأيه عليه أن يُدرك أنه سوف يواجه غضب ريتشار داوكنز، ولكن فضلاً ضع المخالب جانبا. فهي غير جذّابة على الإطلاق.

بعد ذلك تتناول ثلاثة من الحجج الاساسية التي تبرهن على وجود الله : الجمال، التجربة الشخصية، والإنجيل.

- **الجمال**

تتناول هذه الحجة بشكل سيء للغاية. بالنسبة لي هي حجة أساسية في إثبات وجود الله. أنت تختزلها إلى شخص يسأل "كيف لنا أن نستوعب إذن قدرات شكسبير، شوبيرت، أو مايكل أنجلو؟" لكن الأمر أعمق من ذلك. لا يتعلّق الأمر بحقيقة وجود جمال – ولكن لماذا لدينا كبشر إحساس بالجمال؟ أنا متأكد أنك سوف تجيب على ذلك بأن تفاعلات كيميائية في عقولنا نشأت عبر ملايين السنين من التطوّر هي السبب. لكن ذلك في أفضل حالاته لا يبدو لي أكثر من تفسير جزئي. الجمال هو جزء من الوعي ويظل واحداً من أعظم الأسئلة التي ليست لها إجابة في الفلسفة التطوّرية– فمن أين يأتي الوعي؟ عندما أرى الجمال في غروب الشمس على نهر التاي، أو أسمع السيمفونية السادسة لبيتهوفن أو أتمشّى على ضفاف الميسيسيبي العظيم لا يمكنني أن أقتنع بأن إحساسي هذا مجرد غريزة أو نبض ناشئ من لاشيء. كلمات سليمان الحكيم تصف الأمر بشكل أفضل "لقد صنع كل شيء حسن في وقته" سفر الجامعة **٣:١١**[٢٨]

أوليس انعدام للقيمة أن نتصوّر أن رافائيل أو مايكل أنجلو أنتجو أعمالهم العظيمة تلك فقط من أجل المال؟ وتضمين أنهم إذا كانوا يعيشون اليوم فلربذما كانوا بأنفسهم يقدّمون (أوبريت التطوّر). بدافع الفضول، أين هم الملحنون الملحدون العظماء، والفنانون..الخ؟ لا شك لديّ أن البشر غير المؤمنين بإمكانهم صناعة أفضل أعمال الفن – لكن ذلك فقط

---

٢٨ ecclesiastes ٣:١١

لأنهم مخلوقون على هيئة الرب. إبداعهم هو انعكاس لإبداع خالقهم، سواء اعترفوا بذلك أم لا. إن قبح الكثير من الفن المعاصر لا يعكس سوى انفصاله عن إلهية وروعة الجمال. هل لي أن أقترح أن تقرأ كتاب **هانز روكماكر**، "الفن المعاصر وموت الثقافة"[٢٩] من أجل مناقشة تنويرية مدهشة حول هذا الموضوع؟ في تلك الأثناء تظل حجة الجمال واحدة من أقوى البراهين على وجود الله. حقيقة أنك لا تستوعبها ولا تتفق معها لا يشكل على الإطلاق حجة منطقية ضدها.

- **التجربة الشخصية**

يبدو أيضاً أنك تواجه صعوبة بالغة مع هذه الحجّة فتقوم باختزالها في أولئك الذين يسمعون أصوات (سواء مسموعة أو داخل رؤوسهم) أو يرون أطياف. تستشهد بواحد من "أذكيائك"؛ طالب الجامعة الذي أصبح كاهناً على الأقل بشكل ما بسبب تجربة مرّ بها عند سماعه صوت الشيطان بينما كان يخيّم في الجزر الاسكتلندية. في الغالب لم يكن الصوت سوى لطائر (مانكس شيروتر). ومع ذلك فذلك الرجل "الذكي" كان غبي بما فيه الكفاية لكي يراها دعوة إلى الكهنوتية! وهو مايضعه في مستوى الآخرين من الذين ذكرتهم – الذي شاهد فيلاً قرنفلي اللون (هل سبق لك أن رأيت واحداً؟)، أو سفاح يوركشاير **بيتر ستكلايف** الذي سمع المسيح يأمره بقتل النساء، أو الرئيس **بوش** الذي "تلقّى وحيا إلهيا" يدعوه لغزو العراق (مرة أخرى من أين لك اليقين في مثل تلك المعلومة؟)، وأناس في الملجأ النفسي يظنون أنهم نابليون أو شارلي شابلين! طبقاً لك فإن الفرق الوحيد بين قاطني الملاجئ النفسية وبين المتدينين هو أن عدد المتدينين أكبر. بالطبع هناك أشخاص يسمعون أصوات ويرون أطياف ليست سوى تخييلات. ولكن هل يعني ذلك أن كل تجربة إنسانية دينية هي على نفس المنوال؟. ينتابني الحذر إزاء أشخاص يروون لي أن الله أخبرهم بشيء ما –و في الغالب يكونون على هامش الاعتقاد الديني وغالبا ما تكون لديهم مشكلات عقلية. ومع ذلك فلا يمكن أن أصل إلى قدر من الغرور يجعلني أفترض أن تكون تلك هي حال الجميع.

أكثر من ذلك، فأنت تخطئ تماماً في طريقة تناولك لحجة التجربة الشخصية. الأغلبية العظمى من المسيحيين لا يؤمنون

---

٢٩ Apollos - ١٩٩٤

نتيجة سماعهم صوتاً أو رؤيتهم طيفاً – في الواقع لقد وجدت مشقّة في محاولة تذكّر أي شخص التقيته ينطبق عليه هذا التصنيف. ومع ذلك فالتجربة الشخصية تلعب دور كبير (في النهاية، فهي التجربة الأقرب إلينا والتي نعرف عنها أكثر من غيرها). ذات مرة كتب **سي. إس. لويس** عن كونه مسيحياً : "وصلت إلى ما أنا عليه، ليس فقط بالتأمل، ولكن بالتأمل في تجربة بذاتها. أنا مؤمن تجريبي، وصلت إلى الرب عن طريق الاستقراء"[٣٠] . ذلك هو موقف غالبية المسيحيين. نؤمن من خلال تجربة، ونفكر ونتأمل تلك التجربة.

هناك عديد من أنواع التجارب الشخصية الأخرى التي تشير لنا – على الأقل – إلى طريق الله: الصلوات المُستجابة، الإحساس بالله ("حقاً الله بينكم")، تحقّق معجزة ما، تجربة تشير إلى صدق وصحّة الإنجيل، مع إحساس الامتلاء الروحاني الغامر، فقط في استعراض لقلة من تلك التجارب. من تجربتي الشخصية، أستطيع أن أتذكر استجابات مباشرة ومميزة وواضحة لصلواتي، إحساس غامر بحضور الله، وكلمات الرب تخاطب عقلي وقلبي وروحي. أنا على يقين أنك وأتباعك سوف تجدون طريقة لاستبعاد ودحض كل تلك الأمور، ولذلك فلن أدّعي أنني أؤمن بالمسيح من أجل أي واحدة من تلك التجارب. لكنّ تراكُم تلك التجارب، بالإضافة إلى صدق الإنجيل، وملاحظة التاريخ والخليقة والمجتمع جميعها تتراكم في يقين شخصي قوي. وليس بشكل يمكن تشتيته بمجرد الحديث عن هؤلاء الذين يسمعون في رؤوسهم أصوات لا وجود لها. كل ما رأيته يدفعني إلى الثقة في الخالق في كل الأشياء الأخرى التي لم أراها.

- **الإنجيل**

حيث أنك تعرضت إلى ذلك في الفصل السابع سوف أقاوم إغراء التعليق المُطوّل على ما قلته في هذا الفصل. ولكن هناك عدة نقاط تحتاج حقاً إلى الإشارة إليها. أنت بدأت بتوجيه النقد لادّعاء **سي. إس. لويس** أنه مادام المسيح قد ادّعى أنه ابن الله فلا بد أنه إما معتوه أو كاذب، أو إله : (مجنون، أو شرير، أو رب). كتبتَ أنّ "هناك احتمال رابع،

---

٣٠ اقتباس مذكور على لسان William Griffin في كتاب "C.S.Lewis:The Authentic Voice" نشر عام ١٩٨٦ Lion

من الوضوح بمكان بحيث لا يحتاج إلى الذكر، أن المسيح كان ببساطة على خطأ". ولكن ذلك هو تماماً ما أشار إليه لويس. فقد أوضح أنه إذا كان المسيح مخطئ في اعتقاده أنه ابن الله فإن ذلك يتساوى مع كونه خاطئ في الاعتقاد بأنه بيضة مسلوقة – إنه جزء "المعتوه" من المعادلة. **لويس** نفسه أجاب على ذلك الاعتراض عندما كتب في عام **١٩٥٠**:

"إن فكرة أن يكون من قال ما قاله المسيح هو مجرّد مُعلِّم أخلاقي عظيم هي فكرة غير محتملة إطلاقا. في اعتقادي، إن الشخص الوحيد الذي قد يقول شيء كهذا هو إما رب أو معتوه بالكامل يعاني من وهم شديد قادر على تقويض عقل إنسان بالكامل". كتابك عنوانه وهم الإله. يقدّم لنا **لويس** خيار بسيط. إما أنك على صواب في أن المسيحيين هم جميعاً أشخاص موهومون يتبعون مسيح موهوم، أو أن الحالة معكوسة تماماً، وأن الموهومون في الحقيقة هم الذين يرفضون المسيح ويتّبعون أوهام وحجج منظومة الاعتقاد الإلحادية.

بعد ذلك تُصرّح أنّه: "على أي حال وكما قلت، فإنه لا يوجد أي دليل تاريخي أن المسيح تصوّر نفسه بصورة إلهية"؛ وهو ما تعني به أنه لا يوجد دليل قرأته في FreeInquiry وفي أي من مراجعي الإلحادية الساذجة. فقط أخبرني ما الدليل التاريخي الذي قمت بتقييمه؟ رجاء ملاحظة أن استخدام Free Inquiry أو A.N.Wilson and Robin كمصادر عن المواد الإنجيلية يُشبه أن أقترح أن يقرأ من يشاء عن التطوّر فقط من موقع الانترنت Answers in Genesis! الدليل التاريخي للادعاءات التي أصدرها المسيح واضحة للغاية. صرّحت بها الأناجيل بوضوح. وكان بسبب ذلك أن تعرّض للصلب – لأنه "كفر" عند ادّعائه أنه الرب.

أنت أيضا توضّح صدق مقولة "أن المعرفة القليلة شيء خطير". فأنت تنقل كحقيقة قاطعة أن إنجيل **لوقا** ليس تاريخيا لحقيقة أن إحصاءاً للتعداد قد تم إجراؤه في السنة السادسة بعد الميلاد بعد موت **هيرود**. ومع ذلك فهناك دليل أن الإحصاء في السنة السادسة كان الثاني من نوعه، وأن الأول ربما أُجري في السنة الخمسة قبل الميلاد. المشكلة ليست أنه لا وجود لأسئلة ومشكلات في الإنجيل (إذ أن هناك). المشكلة هي أنك بكل حسم الأصولي المبتهج بإثبات أن خصمه على خطأ، تسلط الضوء على أسوأ الأدلة، ودون تحقيق مفصّل تُصدر تصريحات كاسحة بأن ذلك يُثبت خطأ الإنجيل.

بهذا الخصوص، فأنا مصدوم من مدى انفصالك عن المتخصصين الإنجيليين المعاصرين. تكتب أن "منذ القرن التاسع عشر صنع الثيولوجيين المتخصصين براهين رائعة على أن الأناجيل ليست توثيق تاريخي دقيق لما حدث في الواقع". ما لم تكن تتبنى جُملة "الثيولوجيين المتخصصين" كبديل مقبول لعبارة "الثيولوجيين الذي يتفقون معي في الرأي"، فإن تصريحك خاطئ تماماً وبمنتهى الوضوح. هل لي أن أقترح أن تسأل زميلك في أكسفورد **أليستر ماكجارث**، عميد وايكليف هول، عن سبب تجاهله لتلك البراهين الرائعة؟ ربما عليك قراءة كتابه "اللاهوت المسيحي : مقدّمة"[٣١] ؟ أن على يقين أنها سوف تكون عون كبير لك وسوف تمنعك من الوقوع في الأخطاء التي صدرت منك هنا.

يذكّرني موقفك بمناقشة جرت ذات مرة في مركز الفنون المعاصرة في ديندي بخصوص شفرة دافنشي[٣٢]. خلال الأمسية جاء أكثر الاعتراضات سخونة من شخصين قدّموا نفس الادعاءات بأن المتخصصين لم يعودوا يقبلوا الأناجيل كسِجِل تاريخي. عندما طُلب من أحدهما التدليل على موقفه وأخبره البعض أنه لازال أسير القرن العشرين (بالرغم من أن ذلك الموقف يعود للقرن التاسع عشر حقيقة) فقد كافح لكي يذكر اسم متخصّص مُعاصر واحد يتبنّى هذا الموقف. أخيراً ذكر اسم **بولتمان** والذي قام بعمله الأساسي في النصف الأول من القرن العشرين. من ناحية أخرى أستطيع التفكير في عشرين مُتخصص إنجيلي كبير على الأقل، ومن جامعات "حقيقية" معاصرة (وليس كُليّات كوخية هامشية) يدلّلون على الصحة التاريخية للأناجيل. على الأقل فإن ادّعاء أن الدلائل التاريخية في صالح الإنجيل هي على نفس مستوى الدلائل في صالح شفرة دافنشي هو في أفضل حالاته جهل وفي اسوأها غش صريح. بل في الواقع هو مُغالطة مُبهر في مدى جرأتها إلى الحد الذي يذكّرني بحكمة **جوبيل**[٣٣] التي تقول أنه كلما كانت الكذبة أكبر (وكلما تم تكرارها باقتناع تام) كلما زادت فرصة تصديق الناس لها.

---

٣١ Blackwell - ١٩٩٣

٣٢ Corgi - ٢٠٠٤

٣٣ سياسي ألماني ووزير الدعاية النازية في عهد هتلر

- العلماء المؤمنون

كذلك أنت تقوم بنسبة حجة غريبة للمؤمنين: "حُجّة العلماء المؤمنين المحترمين". أقول أنها حجة "غريبة" لأنني لم يسبق لي أبداً أن سمعت واحداً يقول أنه يؤمن بالله لأن هذا العالِم أو ذاك يؤمن به. أمّا ما نقوله بالفعل فهو أن محاولة الملحدين وضع العلم على صدام مع الدين محاولة يفنّدها العدد الضخم من العلماء المؤمنين. وأظن أن هذا ما يثير استياءك وما يدفعك لتضخيم أهمية النماذج غير الهامة من البشر التي تتعرّض لها. أنت تستبعد كل علماء ما قبل دارون بادّعاء أنه كان من الطبيعي للناس في ذلك الوقت إشهار إيمانهم حتى لا يتعرّضوا لضغوط مجتمعية. في الواقع أنك تستمر في الترفّع عن زملائك العلماء المؤمنين، حتى أنك تلمّح إلى احتمال أن أولئك الذين يظلون مؤمنين قد يفعلوا ذلك بسبب عوامل اجتماعية أو اقتصادية. وأكثر من ذلك تصرّح بأنهم من الندرة في الأوساط الأكاديمية حتى أنهم "موضع ترفيه ودهشة زملائهم في الأوساط الأكاديمية". إذن أنت ترى أن **أزا جراي** (عالم النبات الأمريكي)، **شارلز دي. والكوت** (مكتشف حفريات الزيت الحجري ، **تي. دوبزانسكي** (البيولوجي الروسي التطوري الارثوذوكسي)، **أر.جيه. بيري** (بروفيسور علم الوراثة في جامعة كوليدج لندن)، **أوين جينجريش** (بروفيسور الفلك وتاريخ العلوم في هارفرد) و **فرانسيس كولينز** (رئيس مشروع الجينوم البشري) جميعهم (مصدر للاندهاش الترفيهي)؟. أظن أن لا شيء يوضّح غرورك وكراهيتك المَرَضية لله والدين أكثر من هذه الرؤية الإقصائية والمتغطرسة – "**من ليس معنا فهو ضدّنا**" – لزملائك العلماء.

لقد لاحظت باهتمام ما كتبته من هامش يقارن بين **فرانسيس كولينز** الرئيس "الإداري" للفرع الأمريكي من مشروع الجينوم البشري وبين **كريج فينتر** "قرصان العلم، الرجل العبقري غير المتدين". يالها من مقارنة مثيرة للاهتمام، ليس فقط بسبب الصيغة الوصفية التي تستعملها. ولكن أكثر ما يفتنني هو الطريقة المختلفة التي أثّرت بها نظرة كل منهما للعالم على طريقة استخدامهما للعلم. في حين أن **فرانسيس كولينز**، المسيحي، أراد أن يجعل مشروع الجينوم البشري متاح

للجميع، فإن قرصانك العبقري غير المتدين أراد خصخصة المشروع بأكمله ليصبح مشروع ربحي. شركته Celera هدفت إلى تسجيل حق الاختراع على كثير من الجينات، ثم إذا نجحوا في ذلك، هدفت إلى جعل المعلومات غير متاحة سوى لأولئك الذين يمتلكون قدر ضخم من المال. أظن أن ذلك يُلخّص بشكل جيد الفرق بين رؤيتين متناقضتين تماماً للعالم. فمن ناحية، هناك أنصار العلم الذين يسعون لاستخدامه لمصلحة الناس جميعاً، وليس فقط الربح الخاص، والذين يدركون حدود العلم والذين يؤمنون أنهم مسئولون أمام الله عمّا يفعلونه بموهبتهم العلمية. وفي الناحية الأخرى هناك أنصار العلم ذوي الأخلاق غير الربّانية وأصحاب النظرة المادية والذين يسعون إلى استخدام المعرفة للمكسب الشخصي والعائد الخاص. أظن أننا قد سبق لنا استكشاف هذا الطريق الماديّ من قبل – أعتقد أن ستالين، ماو، وهتلر جميعهم آمنوا بأن المجتمعات يجب أن تُحكم بمثل هذا "العلم" ومثل تلك الأخلاقيات. أعتذر إن كان ذلك يهينك، ولا أحاول المساواة بين إلحادك "الطيب" وبين ذلك الإلحاد الشرس، لكني بصدق أعتقد أن ذلك هو الطريق الذي تقود إليه كراهيتك الإلحادية لله مجتمعنا. في الواقع هو واحد من الأسباب التي تجعلني أؤمن بإله الإنجيل– لأنه بدون النظرة الإنسانية الإنجيلية ليس لدي تفسير حقيقي، ولا دفاع ضد الشر الذي يمكن للبشر ارتكابه.

دعني أنهي رسالتي بالإشارة إلى أنك تجاهلت البرهان الأكثر أهمية على الإطلاق على وجود الله ؛ شخص وأفعال المسيح نفسه. السبب رقم واحد الذي يجعلني أؤمن بالله وأثق فيه هو المسيح عليه السلام.

"الله، بعد ما كلم الآباء بالأنبياء قديما، بأنواع وطرق كثيرة. كلمنا في هذه الأيام الأخيرة في ابنه، الذي جعله وارثا لكل شيء، الذي به أيضا عمل العالمين. الذي، وهو بهاء مجده، ورسم جوهره، وحامل كل الأشياء بكلمة قدرته، بعد ما صنع بنفسه تطهيرا لخطايانا، جلس في يمين العظمة في الأعالي" رسالة بولس الرسول إلى العبرانيين **١:١-٣**[٣٤]

إن حضور وقوة وكمال المسيح لا يمكن أن يكون وهماً.

المخلص ديفيد

---

٣٤ Hebrews ١:١-٣

الرسالة السادسة

أسطورة الإله المخلوق، والكون غير المخلوق

عزيزي د. داوكنز

أخيراً نصل إلى جوهر كتابك وحجّته الرئيسية. عنوان الفصل الرابع يحمل ادّعاء جريئ: "عدم وجود إله، لماذا يكاد يكون أمر مؤكّد". هنا تشير إلى تمكُّنك من أن تثبت – بقدر ما يمكن إثباته – أنه لا وجود لله. وجدت هذا الفصل مدهش. اسمح لي بتفسير السبب. توقّعت أن حجتك ضد وجود الله سوف تكون تراكمية – إلى حد ما مثل موقفك من التطوّر. في مواجهة جبل القُدسية الإلهية والاعتقاد العالمي للإنسانية في وجود إله أو عدة الهة، توقعت منك أن تتسلق جبل الاحتمالية المُضادة بالتدريج، بحيث تبني قضيتك شيئاً فشيئاً بشكل يقودنا تراكمياً إلى استنتاج أنه لا وجود لله. لكنك تتوجّه إلى القفزة الكبيرة. تظن أن لديك الحُجّة القاتلة، وأن بإمكانك التوجّه مباشرة إلى الكأس المقدّس لعقيدة الإلحاد،

ثم تنزلق بعد ذلك في هدوء، فتلتقط ما تبقى من البراهين الإيمانية في الطريق لتُفنّدها تباعاً، بعد أن أثبتّ بالفعل عدم وجود الله.

ما هي تلك الحجّة القاتلة؟ تلك التي لم يستطع حتى **نيتشة** نفسه أن يتبيّنها؟ برهانك يقوم كالآتي: التطور حقيقة مُثبتة. التطوّر يفضح وهم التصميم الذكي (الخلق). حجّة الخلق أو التصميم الذكي هي الدليل الرئيسي على وجود الله. وما السبب من وجهة نظرك في أن حجّة التصميم الذكي خاطئة؟ النقطة التي تعتقد أنها تكاد تثبت بما لا يدع مجال للشك أن الله غير موجود؟ قلب وجوهر تبريرك العقلي على إلحادك العاطفي؟ يالها من حُجّة مذهلة للغاية (أكاد أستشعر الحاجة إلى صوت طبول ليواكب لحظات الترقّب..). حُجّتك هي: "من الذي صمّم ذلك المُصمّم؟"

بصياغتك أنت، تقول:

"مرة أخرى، فذلك لأن المُصمّم نفسه (نفسها) يثير فوراً مشكلة نشأته

في الواقع أن التصميم الذكي ليس بديل حقيقي على الإطلاق، لأنه يثير مشكلة أكبر من التي يحلها: من الذي صمّم المُصمّم؟

لكن بصرف النظر عن أي شيء آخر نقوله، فالتصميم الذكي بالتأكيد لا يقدّم تفسير لنشأة الحياة، لأن التصميم في النهاية ليس عملية تراكمية.

تظل الإجابة الإيمانية على ما هي عليه، إجابة غير مُرضية على الإطلاق، لأنها تترك وجود الله بدون تفسير.

إن افتراض أن المحرّك الأولي لعملية التصميم كان على درجة كافية من التعقيد تمكّنه من الشروع في التصميم الذكي، دع جانباً القدرة على قراءة عقول ملايين البشر في وقت واحد، (افتراض لا مكان له بين الظواهر المُحتملة)"

من الواضح أن تلك النقطة شديدة الأهمية بالنسبة لك، وأنها الأرضية التي تقوم عليها بقية براهينك. عندما قرأتها أصابتني

صدمة عارمة. ليس بسبب عبقريتها، أو قوتها الحاسمة، أو منطقيتها الغامرة، ولكن على النقيض بسبب تفاهتها. "من الذي صنع الله؟" هو سؤال قد أتوقعه من طفل في السادسة. "من صنع الله إذن؟" هو اتهام قد أنتظره من مراهق في السادسة عشر. أنا مندهش للغاية أن أجد أكثر الملحدين شهرة (بعد وفاة الفيلسوف **أنتوني فلو**[٣٥]) وبروفيسور من جهابذة أكسفورد، أن يستخدمه كأرضية فكرية يقوم عليها إلحاده. هل تلك هي الحجة التي ستغيّر وجه العالم؟ هل هذا هو المفتاح؟! اعذر شكوكي ولهجتي الساخرة بعض الشيء ولكنك أسرع مني في السخرية من بعض الحجج الإيمانية الأقل نباهة. إن استخدام حجة "من خلق الله" هو المعادل الإلحادي لبعض الحجج الإيمانية من نفس الدرجة.

الإجابة على سؤالك، من خلق الله؟، هي: "لا أحد". الله ليس مخلوق. الله هو الخالق، وليس الخلق. الله خارج الزمان والمكان (ولا يعني ذلك أنه أيضاً غير موجود في الزمان والمكان أو أنه ليس هناك ما يكفي من الأدلة على وجوده فيهما). الله يخلق من لا شيء . وذلك هو ما يجعله "الله". هو لا ينحت الأشياء الجديدة من أشياء موجودة بالفعل. هو يخلق الزمن والمكان والمادة من لاشيء. أعلم أن ذلك قد يبدو لك هراء، لأن جوهر عقيدتك هو أن التطوّر يعني أن يبدأ كل شيء بسيط ثم يصبح أكثر تعقيداً، ولذلك (ولأن أيّة خالق لا بد أن يكون معقّد بدرجة تفوق الوصف) فلا يمكن لله أن يكون موجود. ولكن إذا افترضنا جدلاً صحة ذلك في مجال علم البيولوجي، فإن علم البيولوجي ليس كل شيء. فكما يقول **جو فيتزباتريك** "داوكنز مُشوّش من الناحية الطرائقية، فقد أخذ مبدأ من العلوم البيولوجية وحوّله إلى قاعدة عامة"[٣٦]. أن تحتجّ بما تقول يستلزم قدر هائل من اليقين ويستدعي طرح سؤال: من قال أن كل شيء، بما في ذلك الله نفسه، يجب أن يأتي من شيئ؟ لا يدّعي المسيحيون والمؤمنون الآخرون أن الله مخلوق. وتلك هي القضية تحديداً. هو لم يأتي من أي مكان. بل كان موجود قبل كل شيء. هو لم يتطوّر ولم يُصنع. إذا كان هناك خالق لهذا الكون فمن المنطقي اعتباره مُعقّد، وأبديّ، ويفوق قدرتنا على الاستيعاب. عندما تقول أنه لا يمكن أن يكون هناك إله لأنه لا يمكن بالتأكيد أن يكون هناك شيء غير مخلوق فأنت تدور في حلقة مفرغة. نحن لا نؤمن بإله مخلوق. نحن نؤمن بقوة مُتجاوزة غير

---

٣٥ مؤخراً أعلن الفيلسوف Anthony Flew والذي اعتنق الإلحاد طوال حياته أنه دلائل التصميم الذكي أقنعته بوجود كينونة عُظمى. حيث تحوّل من الإلحاد إلى الربوبية Deism وليس بالضرورة إلى الإيمان Theism. الـ Deism هو مذهب يؤمن عن طريق العقل والملاحظة بوجود إله خالق لكنه لا يؤمن بتدخّل هذا الإله في حياة المخلوقات ولا يؤمن بدين ولا أنبياء.

٣٦ المجلة الكاثوليكية open House – يناير ٢٠٠٧

مخلوقة. أخشى أنك لا تثبت أي شيء عندما تبرهن على عدم وجود إله مخلوق.

دعنا نفترض جدلاً أن التطوّر حقيقة ثابتة، فكيف يمكن لذلك إثبات عدم وجود الله؟ دعنا نفترض جدلاً أن حركة التصميم الذكي على خطأ – فكيف يمكن لذلك إثبات عدم وجود الله؟ ذلك قد يدحض واحدة من الحجج التي يستخدمها بعض المؤمنين، ولكن هناك العديد من البراهين الأخرى. أكثر من ذلك، هناك كثير من المسيحيين لا يقبلون فكرة التصميم الذكي ومع ذلك هم لا زالوا مؤمنون برب الإنجيل.

ذكرت بثناء خاص **كينيث ميللر**، من جامعة براون، ومؤلف كتاب البحث عن إله دارون[٣٧]. هو يختلف بشدة مع **مايكل بيه** أحد العلماء الكبار المؤمنون بالتصميم الذكي، ومع حركة التصميم الذكي ككل. وِفق منطقك من المفترض أن يكون ملحدا. لكنه ليس كذلك. هو مؤمن. أنا متأكد أنك لن تدعوه غبياً لكنك تتهم مؤمنين آخرين هم أيضاً علماء "جيدين" بأنهم "مُتصَندِقون". يبدو لي ذلك غطرسة ويتساوى مع اتهامهم بالغش البيّن. من وجهة نظرك تتصوّر أن لديهم الدليل على عدم وجود الله (من الذي صمّم المُصمّم؟) ولكنهم لا يمتلكون الشجاعة الأخلاقية أو الطاقة الفكرية للخروج بالاستنتاج المنطقي. فيما عدا بالطبع لو كانت تلك الاستنتاجات غير منطقية. كما يصف **ماكجارث** الأمر "هناك فجوة منطقية كبيرة بين الدارونية والإلحاد، والتي يبدو أن دارون يميل لوصلها عن طريق الجدل بدلاً من المنطق"[٣٨]. من أجل أن يكون هناك انتقاء طبيعي لا بد أن يكون هناك أشياء للانتقاء من بينها. من أين جاء ذلك؟ هنا تأتي البراهين الإيمانية Aquinas – المُحرِّك غير المُحرَّك، السبب غير المُسبَّب، والبراهين الكونية.

فيما يخص أصل المادة هناك ثلاثة بدائل فقط:

١-**ان شيئاً جاء من لا شيء**. في وقت ما لم يكن هناك كون، لم تكن هناك مادة، لم يكن هناك حدث، لا زمان ،

---

٣٧ HarperCollins - ٢٠٠٠

٣٨ Dawkins' God, Blackwell – ٢٠٠٤ صفحة ٨٧

ولا مكان. ومن وسط هذا اللاشيء الكبير جاء الانفجار الكبير بكل ما نتج عنه من كوننا الشاسع، وكوكبنا الصغير، والتطوّر، وجنس البشرية. مثل تلك الفكرة تتجاوز حدود المنطق ولا تزيد عن كونها فانتازيا غير معقولة.

٢-**أن شيئاً ما كان أبدياً**. بصيغة أخرى، أنّ المادة كانت موجودة طوال الوقت، هناك كتلة من الصخور، أو كتلة من الغاز أو نوع من المادة ليست لها بداية وربما لن تكون لها نهاية. وفي وقت ما انفجرت تلك المادة وانتهى بنا الأمر بهذا الكون الرائع دقيق التكوين الذي نسكنه.

٣-**أن شيئاً ما قد خُلق من لاشيء**. وأن خالقه ولا شك عظيم القدرة والذكاء والروعة بما يفوق تصوراتنا.

لا أستطيع أن أرى بديل منطقي آخر. هل لديك مثل هذا البديل؟ أجد أنه من المدهش أنك عندما واجهت هذ السؤال ادّعيت أنه لا أحد يعرف من أين جاءت المادة، وأنّ العلماء في يوم ما سوف يكتشفون ذلك. بالرغم من ذلك اليقين المؤثّر في القدرة المعرفية المتناهية للعلماء، أخشى أن تلك الإجابة لا تفي بالغرض. إن وجود الله لا يعتمد على حجّة التصميم فيما يتعلق بعملية التطوّر، بل يعتمد على حقيقة أن هناك مادة من الأساس، وأننا نعيش في كون على قدر من الدقة بحيث يجعل الحياة ممكنه فيه. لماذا يوجد شيء بدلاً من لا شيء؟ ولماذا أمكن لهذا الشيء أن يُنتجك ويُنتجني؟ هذا ليس بالسؤال الذي بمقدورك الاكتفاء بتجاهله أو إبداء عدم الاكتراث به.

دعنا ننتقل إلى المرحلة الثانية. لا يتعلّق الأمر بأن المادة موجودة من الأصل، ولكن بكونها مُنتظمة بشكل يسمح للحياة بالوجود. لقد نشأتُ في منطقة بها القليل جداً من التلوث المرئي. في ليالي الشتاء كنت غالباً ما اتمشّى تحت النجوم، مخاطراً بالتعرّض للإصابات من كثرة تحديقي إلى الأعلى. كانت النجوم تُبهرني وتُدهشني وتسحرني. في أيامنا هذه أستطيع أن أزور المرصد المحلي في مدينة (داندي) لأجد في انتظاري عبارة فوق الباب: "هذا المرصد موجود من أجل أن تتمكن من تأمّل عجائب الخالق في السماء". فوق باب معامل (كافينديش) القديمة في كامبريدج، حيث اكتشف **جي.**

جي. تومبسون الإلكترون واكتشف كريك وواتسون تركيب DNA يوجد نقش يقول:

"Magna opera Domini exquisita in omnes voluntates ejus" ومعناها (عظيمة هي أعمال الخالق؛ مطلوبة لكل امسرورين بها) سفر المزامير ١١١:٢[٣٩]. تلك الثيولوجية اللاهوتية لم يبدو أنها أعاقت مسيرة العلوم في كامبريدج، والتي أنتجت –ولا زالت تُنتج– من العلماء الحاصلين على جوائز نوبل أكثر من أي جامعة أخرى، بما في ذلك أكسفورد: ٢٩ جائزة نوبل في الفيزياء، ٢٢ في الطب، و ١٩ جائزة في الكيمياء!

إن التحديق في النجوم هو بالنسبة لي واحد من أعظم الأسباب التي تدفعني إلى الإيمان بالله، وربما أعظم تلك الأسباب على الإطلاق. لكم وجدت أنه من الصعب الاعتقاد في أن هذا الكون الشاسع موجود بنفسه، أو كنتيجة للصدفة. وبينما تقدّمت في العمر وفي المعرفة وجدت سعادة في اكتشاف أن فطرتي الطبيعية في الملاحظة توافقت مع ما اكتشفه العلم هو الآخر. مع ذلك فأنا أجد مشقّة في قراءة معظم الكتب حول التطوّر بسبب نقص المعرفة (وجدت كتبك في الواقع أكثرها يسراً وتشويقا)، رغم كوني أستمتع للغاية بالقراءة في علم الكونيّات. مؤخراً كنت أقرأ كتاب أوين جينجريك "كون الله"[٤٠]، وكتاب فرانسيس كولينز "لغة الرب"[٤١]، والذي يفسّر بشكل رائع سبب أن الكون هو أفضل برهان على وجود الله. بعد قراءة تفاصيل عجائب الانفجار الكبير، يستعرض كولينز بإيجاب ما كتبه الفيزيائي الفلكي روبرت جاسترو في كتابه "الله والفلكيون"[٤٢]: "بالنسبة لعالِمٍ عاش حياته كلها مؤمناً بقدرة العقل، فإن القصة تنتهي مثل حلم مزعج. بعد أن تسلّق جبل المجهول، وأصبح على مشارف الوصول إلى أعلى قمّة المعرفة، ولحظة ما كان يدفع نفسه ليتجاوز الصخرة الأخيرة، يجد في استقباله مجموعة من الثيولوجيين كانوا يجلسون هناك لقرون طويلة". اعتقدت أن ذلك الاقتباس ليُثير إعجابك!

كتب جاسترو أيضا: "الآن نرى كيف أن البراهين الفلكية تقودنا إلى المنظور الإنجيلي لنشأة الكون. قد تختلف

---

٣٩ psalm١١١:٢

٤٠ god's universe

٤١ the language of god

٤٢ W. W. Norton - ٢٠٠٠

التفاصيل، لكن العناصر الرئيسية والشروح الإنجيلية والفلكية للتكوين متشابهة. سلسلة الأحداث التي أدّت إلى بداية فُجائية وحادة للإنسان في لحظة مُحددة من الزمن، في وميض من الضوء والطاقة". يشير **ستيفين هاوكنز** إلى أن مُعدّل التوسّع بعد ثانية واحدة من الانفجار الكبير لو أنّه كان أصغر ولو حتى بجزء من عشرة آلاف مليون المليون لانهار الكون من جديد قبل أن يصل لحالته الراهنة. ولو كان أكبر بجُزء من المليون لما كانت النجوم والكواكب قادرة على التكوُّن. أليس ذلك مذهلاً إلى حد القشعريرة؟ الثوابت مثل سرعة الضوء وقوة الجاذبية الأرضية والمغناطيسية الكهربائية جميعها ينبغي أن تعمل معاً بدقة مُتناهية من أجل أن تكون هناك حياة. من الظاهر أن هناك خمسة عشر من تلك الثوابت. أمر رائع يفوق التصديق.

إذا تمسّكت بموقف أن المادة أبدية، وهو ما ينبغي عليك التمسّك به كونك ملحداً تؤمن بالمذهب العقلي، فإن ذلك يتركك مع الاحتمالية متناهية الصغر لحدوث هذا الانضباط الدقيق للكون بمحض الصدفة. وهي احتمالية بعيدة إلى الحد الذي لا يمكن معه تفسيرها بالتطوّر، لأنه لا شيء هناك من الأساس لكي يتطوّر. السؤال هو: كيف حصلنا على الظروف المواتية للتطوّر؟ أظن أنك سوف تدّعي أننا كنّا محظوظين جداً جداً جداً لا أكثر – إلى حد الجزء من العشرة آلاف مليون مليون. يستلزم ذلك قدر ضخم من اليقين. مثل ذلك المثال الذي اقتبسته عن الفيلسوف **جون ليزلي** عندما تحدّث عن رجل محكوم عليه بالإعدام يقف أمام فريق من عشرة قناصة، وجميعهم يصوّب نحوه ويُخطئ. ربما توجد طريقة لتفسير مثل ذلك "الحظ المتناهي" لكنه مع ذلك ليس بالحدث المُحتمل. ضاعف ذلك مليون مرة لتجد احتمالية أن يصبح الكون على ما هو عليه. لذا، ولكي تتجنّب ذلك، فما الذي يمكنك فعله؟ يمكنك اختراع فكرة *الأكوان المتوازية*. فكرة أن هناك بليون كون يتواجدون آنياً في نفس اللحظة مثل فقاعات الفوم، وأن هناك فرصة أن ينتهي على الأقل واحد منها بشكل من أشكال الحياة. بل إنّك تقتبس حتى فكرة عالم الفيزياء النظرية **لي سمولين** التي ترى أن أكوان وليدة تولد من الأكوان الأم وأنها تتطوّر في الواقع حتى تصل في وقت ما إلى مرحلة تصبح معها الحياة ممكنة. ويالها من ادعاءات غير عادية تشير إلى مدى اليأس الذي تعانيه لتبرير وتفسير الكون الذي لدينا دون حاجة لوجود الله.

في حين أنّك تُصرّ على إخبارنا أن العلم هو ما يمكننا ملاحظته وأنه يقوم على الحقائق والبراهين، فإنّ فكرة الأكوان المتوازية هي فكرة خيال علمي ساذجة لا يوجد من البراهين ما يشير عليها إطلاقا. يكاد الواحد يصل إلى الانطباع بأنك قد تقبل أية نظرية ما دامت لا تتضمّن احتمالية وجود الله! يُصبح ذلك أكثر وضوحاً عندما ننتقل إلى الفصل الأخير – هناك تأخذ تلك التأملات خطوات أبعد عندما تعتمد على كتاب **ديفيد ديوتش** "بُنية الحقيقة: نحو نظرية لكل شيء".[٤٣] يعتقد **ديوتش** في وجود عدد ضخم ومُتنامي من الأكوان المتوازية والآنية بحيث لا يكتشف أحدها الآخر – فيما عدا من خلال فجوات التجارب الكمّية. تقول "في بعض تلك الأكوان قد أكون ميتاً بالفعل. وفي أقلّية منها فإن لديّ شارب أخضر"! وتسخر من إيماننا بأن خالق الكون قادر على بعث الموتى! هل وصل بك اليأس في إثبات عدم وجود الله حقاً إلى درجة أن تؤمن بوجود أكوان توجد بها شوارب خضراء؟ ولماذا تقف عند ذلك الحد؟ لماذا لا تقول أن فيلم الإخوة واكوسكي "**ماتريكس**" هو في الحقيقة توثيق للواقع الذي نعيشه؟ أن العالم الذي نعيش فيه ليس في الحقيقة (حقيقي)، فقط أننا نظُن أنه حقيقة لأن عقولنا مُتّصلة بكمبيوتر عملاق يغذّيها بوهم الواقع. ربما هناك برنامج كمبيوتر عملاق في مكان ما يُغذّي عقولنا حتى بوهم قراءتنا لهذا الكتاب؟!

تحب ادّعاء أن موقفك موقف عقلاني توصّلت إليه نتيجة ارتقاء الوعي الذي أحدَثهُ **دارون** لديك، ويبدو أنك تعتبر هؤلاء الذين لا يتفقون مع رأيك أشخاص لم يتطوّروا بشكل كافي (على الأقل من ناحية الوعي). موقفك إذن كما تدّعي هو موقف علمي، ودائماً ما تُصوّر الجدال على أنه مواجهة بين قوى العقل والعلم وبين اللاعقلانية العمياء للدين. أخشى أن ذلك لا ينسجم مع الحقائق. في الحقيقة أنه برغم ادعاءك أن العلم هو سبب عدم إيمانك بالله، فأنت لا تُقدّم أي دليل علمي ملموس على حتمية عدم إيماننا بالله. إن براهينك التي تستخدمها للإلحاد كمنظومة إيمانية هي في جوهرها براهين غير علمية. وعليك التوقُّف عن تصوير الأشخاص من بيننا المؤمنون بوجود الله على أنهم يفعلون ذلك بحثاً عن "إله الفجوات" – عن كينونة سوف تملأ الفجوات بشكل مؤقت حتى يعطينا "العلم" الإجابة الحقيقية. إننا نؤمن بالله بسبب الدليل، وبسبب العلم (المعرفة)، وبسبب مانراه في الكون من حولنا. كما يصرّح **فرانسيس كولن** "هناك

---

٤٣ Penguin Books Ltd - ١٩٩٨

أسباب قيّمة للإيمان بالله، بما في ذلك القواعد الحسابية والنظام الموجود في الخليقة. إنها أسباب حقيقية مبنية على المعرفة وليس على افتراضات مُسبقة مبنية على قصور مؤقت في المعرفة"[٤٤]. عن نفسي أُفضّل اختيار سحر المعرفة فوق سحر الجهل في أي وقت.

دعني أنتهي هنا باستعراض بعض الاقتباسات الأخرى:

"إن أفضل المعلومات التي توصّلنا لها هي تماماً ما كنت لأتوقعه لو لم يكن لديّ من شيء سوى الكتب الخمسة لموسى، والمزامير، الإنجيل بأجزائه." أرنو بنزياس، العالم الحائز على جائزة نوبل والذي اكتشف الإشعاع الخلفي الذي أثبَت الانفجار الكبير[٤٥]

"إنه لمن الصعب تفسير سبب نشأة الكون بالطريقة التي نشأ عليها سوى أن يكون ذلك بفعل خالق أراد عن قصد أن يخلق كائنات مثلنا" ستيفين هاوكنج في كتاب "تاريخ مُختصر للزمن"

"عن نفسي فأنا مقتنع أن خالقاً ذا ذكاء خارق موجود وراء الكون وفيه، وأن السياق المتميّز بالدقّة الموجود في عالمنا بحيث يسمح ويشجّع على وجود حياة ذاتية الإدراك هو جزء من تصميم وهدف الخالق" أوين جينجريش في كتاب "كون الإله"

"... إنها لصعوبة شديدة، بل وربما استحالة أن يتكوّن هذا الكون المذهل والضخم، بما في ذلك الإنسان بقدراته على النظر في الماضي واستقراء المستقبل، كنتيجة للضرورة أو للصدفة العمياء. لذلك فعندما أتأمّل أجد نفسي مضطر إلى البحث عن مُسبّب أول لديه عقل ذكي يشبه إلى حد ما عقل الإنسان؛ وأجد نفسي جدير بلقب مؤمن." شارلز دارون، مقتبس من الكتاب الذي ذكرته "البحث عن إله دارون"

---

٤٤ The Language of God صفحة ٩٣

٤٥ Malcolm Browne, 'Clues to the Universe's Origin Expected', New York Times ١٢ March ١٩٧٨ صفحة ١ عمود ٥٤
مذكور في بحث بعنوان Arno A. Penzias: Astrophysicist, Nobel Laureate الموجود على موقع
http://www.asa٣.org/ASA/PSCF/١٩٩٤/PSCF٩-٩٤Bergman.html

إنّ استعراضك لموضوع أصل المادة ونشأة الكون مَكَّنك في الحقيقة من إحراز هدف كبير في نفسك. بدلاً من إثبات أنه يكاد يكون من المؤكد عدم وجود إله، فقد أوضحت على العكس أن وجوده هو الذي يكاد يكون مؤكدا. ربما هي فكرة جيدة أن تحاول معرفة من هو، بدلاً من أن تستمر في دفن رأسك بالرمال، وأن تتوقف عن الإشارة بيدك نحو إله تدّعى استحالة وجوده لأنه لكي يوجد فلا بد أن يكون أكثر تعقيداً منك. فهو بالفعل كذلك.

المخلص ديفيد

الرسالة السابعة

أسطورة الشر المتأصّل في الدين

عزيزي د. داوكنز

هناك أغنية حضانة انجليزية اسمها "دوق يورك العظيم كبير السن". ربما لا زلت تعرف كلماتها:

دوق يورك العظيم كبير السن

لديه عشرة آلاف رجل

جعلهم يسيرون إلى قمة التل

ثم جعلهم يسيرون لأسفله من جديد

بشكل ما أشعر أن هذا حالنا الذي وصلنا إليه.لقد قدتنا إلى قمة التل لتثبت لماذا لا يوجد إله. وكما أرى فقد فشلت في تحقيق ذلك. والآن يقودنا كتابك إلى أسفل التل مرة أخرى، بينما تستهدف ما تبقى من البراهين الإيمانية في الطريق لتُفنّدها تباعا. الفصل الخامس من كتابك والذي يدور حول جذور الديانة هو محاولتك للإجابة عن سؤال: لماذا تنتشر الديانة في كل مجتمع حول العالم. "بالرغم من أن التفاصيل تختلف حول العالم، فلا توجد ثقافة معروفة بدون شكل ما من أشكال الطقوس المُستهلكة للوقت، والثروة، والمثيرة للعدائية. إنّها فانتازيا الدين غير المُنتجة والمخالفة للحقائق". الفصل الثامن يستكمل عنوان مسلسلك التلفزيوني على القناة الرابعة "أصل كل الشرور؟". أجد أن تحليلك الذي قدّمته في كلا هذين الفصلين هو تحليل تصعُب الإجابة عليه لأنه يعتمد على النظرية الفاشلة (أن عدم وجود الله حقيقة ثابتة)، ولأن معالجتك للدين غير متوازنة، ومشوّهة، وانعاكسية، وليست بالتقييم الموضوعي ولا تزيد عن استعراض لمشاعرك الشخصية المعادية للإله.

لقد كانت هناك محاولات عديدة لتفسير سبب انتشار الدين بهذا القدر. بعض عُلماء الأعصاب ادّعوا وجود "مركز إلهي" في العقل؛ بعض علماء النفس تحدّثوا عن التأثير الإيحائي للدين في تهدئة الناس وتقليل توتّرهم؛ الماركسيون يدّعون أن الدين وسيلة الطبقة الحاكمة من أجل إخضاع الشعوب. وسوف يدّعي الفرويديون أن الدين جزء من نفس الميكانيزم غير العقلاني في الدماغ والذي يجعلنا نقع في الحب؛ تلك النقطة الأخيرة تذكرني بدراسة كتاب "تكوين الطبقة الوسطى الإنجليزية"[٤٦] لمؤلفه **إي. بي. ثومبسون** أثناء دراستي في جامعة إدنبرة. والذي يفسّر فيه إنبعاث البروتستنتينية على أنّه تعبير عن الكبت الجنسي. حتى آنذاك وجدت ذلك التفسير مُتكلّف ومُضحك.

أنت تفضّل افتراض أن الدين هو إخفاق ثانوي في عملية الانتخاب الطبيعي. بشكل ما طوّرت عقولنا ميكانيزم للبقاء يجعلنا نميل إلى طاعة وتقليد أسلافنا. توجد لدى الأطفال ميول طبيعية لطاعة أبائهم وأمهاتهم تقوم على الثقة، وبالرغم من أن تلك الطاعة مُفيدة من أجل البقاء، فإنها تجعل من السهل جداً الضحك عليهم وغزوهم بـ "فيروسات العقل" مثل

---

٤٦ Gollancz - ١٩٦٣

الدين. وهنا تتقدم واحدة من نظرياتك المفضلة – فكرة (الميميّات)[٤٧]. هي محاولة لإنشاء ارتباط بين التطوّر الداروني وبين تطوّر الأفكار. فيما يخص الدين، وكما يشير **ماكجارث** "لا يؤمن الناس بالله لأنهم منحوا الأمر تفكير طويل وعميق؛ ولكنهم يفعلون ذلك لأنهم التقطوا عدوى (ميمي) قوية"[٤٨] . لكن تلك الفكرة تفشل على ثلاثة مستويات على الأقل. اولاً: لا يوجد دليل ملموس على تلك النظرية – فهذا مرة أخرى هو من قبيل "علم الفجوات" حيث يتم ابتكار أشياء فقط من أجل إفساح المجال لكل شيء في نظريتك التطورية الشمولية. ثانياً: إن كانت حقيقية فإن أفكارك بما فيها التطور الداروني يمكن اعتبارها ميمي هي الأخرى. ثالثاً: كما يشير **سايمون كونوي موريس** بروفيسور الباليو–بيولوجي[٤٩] في جامعة كامبريدج "ميميّات تافهة، يمكن التغلُّب عليها عن طريق تمارين عقلية بسيطة. في أي سياق أوسع، فإنها تبسيطية بشكل ميئوس منه إن لم يكن شديد السذاجة"[٥٠]. وعن نفسي فسوف أذهب لما هو أبعد من ذلك إذ أرى أنّها فكرة خطيرة. إذا كنت تعتبر الديانة فيرس فما الذي ينبغي فعله مع الفيرس؟ بالطبع ينبغي إبادته.

وهو ما يدعوني للقفز إلى الفصل الثامن – "ما الخطأ في الديانة؟" أنت تقول أنك لا تحب المواجهة وأنك "ترفض بشكل منتظم دعوات المشاركة في مناظرات رسمية". أخشى أن ذلك لا يستقيم. فكتابك يقوم إلى حد كبير على المواجهة. أنت تُحيط نفسك بهؤلاء الذين يتفقون مع ما تقول قبل أن تُظهر العدوانية إزاء من يخالفونك. في الحقيقة، فأنت تؤسس مناظرات وهذا الفصل بالتحديد يتناول أسطورة (أو ميمية) أساسية واسعة التأثير في ثقافتنا اليوم. إنها وجهة النظر أن الدين هو بالضرورة شيء شرير وأن الإلحاد على العكس هو خير نقي. بالرغم من أن الأحمق وحده هو من قد ينكر أن بعض أوجه الدين وبعض المتدينين تسبّبوا في قدر كبير من المعاناة في العالم، فعلى نفس قدر الحماقة الخروج بمثل هذا الاستنتاج الكاسح غير المسئول الذي تُقدّمه هنا من أجل أن تغذّي أسطورة أن الدين في جوهره مؤذي. تلك هي نصف

---

٤٧ الميمة (meme) مصطلح تم سكه عام ١٩٧٦ من قبل البيولوجي ريتشارد داوكنز، يشير هذا المصطلح إلى "وحدة المعلومات الثقافية" التي يمكن نقلها من عقل لآخر بطريقة مشابهة لانتقال الجينات من فرد لآخر خلال عملية التكاثر حيث تعتبر الجينات وحدة المعلومات الوراثية، سرعان ما ظهر لاحقا علم خاص يدعى علم الميميات يعنى بدراسة هذه الفكرة و تطبيقاتها

٤٨ مذكور في Dawkins' God لـ McGrath

٤٩ Paleobiology هو علم الحفريات البيولوجية

٥٠ نقلاً عن Simon Morris في كتاب Life's Solution: Inevitable Humans in a Lonely Universe من نشر Cambridge University Press عام ٢٠٠٣

حقيقة يروجها الإلحاد وتلقى رواج كبير رغم مخالفتها للحقيقة. أجرت صحيفة الجارديان في ديسمبر ٢٠٠٦ استطلاع رأي للبريطانيين، أوضحت نتيجته أن غالبية الناس يعتقدون أن الدين مؤذي ويُسبّب الخلاف بين الناس. بالطبع وُضعت كل الديانات في كومة واحدة. هو نفس المبدأ السياسي الذي يُؤسس لفكرة محور الشر – أن يُقسّم العالم إلى الأخيار والأشرار. أنت تعتنق تلك النظرة الأصولية والتبسيطية.

لكنك لا تُحب أن تُصنّف على أنك أصولي. الأصولي هو طبقاً لتعريفك: الشخص الذي يؤمن بـ "كتاب مُقدّس". الأصولي لن يغير أبداً من رأيه: "نحن نؤمن بالتطوّر بسبب البراهين التي تدعمه، وسوف نتخلى عن هذا الإيمان بين عشيّة وضحاها إذا ظهرت براهين جديدة تفنّده. لا يمكن أبداً أن يقول الشخص الأصولي شيئاً كهذا". حقاً؟ أنا أعتقد أن الإنجيل صحيح. وأعتقد أن المسيح قام من الموت. وأعتقد أن الله هو خالق السماء والأرض. وأعتقد أن كل البشر مُتساوون ومخلوقون على صورته. وسوف أتخلّى عن كل تلك المعتقدات غداً إن ظهرت براهين جديدة تُفنّدها.

أعتقد أن هناك أسباب عديدة تدعو لتصنيفك أصولياً.

أولاً: أنت متحمس للغاية لما تؤمن به. كل من هو متحمّس لما يؤمن به غالباً ما يُصنّف أصولياً. الآن بالطبع سوف تدّعي أن العدائية التي "تُعبّر عنها من آن لآخر تجاه الدين هي عدائية تقتصر على الكلمات فقط". فأنت لن لتفجّر أي إنسان أو تقطع رأس شخص أو تقود الطائرات عبر ناطحات السحاب. لكن في الصفحة ٣١٨ تُناقض نفسك بشكل صارخ عندما تعلّق على القول المأثور "العصي والحجارة قد تكسر عظامي، لكن الكلمات لن تؤذيني ابداً"، تصرّح فتقول "أن تلك المقولة صحيحة فقط ما لم تؤمن بتلك الكلمات إيمان حقيقي". القواعد التي تريدها أن تنطبق على الخصم ينبغي ن تنطبق عليك أنت أيضا.

إذا كنت قلقاً من التأثير الذي يمكن للكلمات التي يستخدمها المتدينون أن تُحدثه، فلا بد من أن تُطبّق نفس المعيار على نفسك. عندما تذهب هنا وهناك فتصف الديانة بأنها شر وأنّها فيرس، فلا ينبغي أن تندهش إن كان هناك من يسمعون

كلماتك ويحولونها إلى أفعال لن تعجبك. أساتذة الطبقة المتوسطة في أكسفورد لن يقتلوا أحداً، ولكن على نفس المنوال فإن أساتذة الطبقة المتو**سطة** من نورمبيرج[٥١] في الثلاثينات. الملحدون لا يحرقون أو يفجرون؟ حاول أن تقول ذلك لأعضاء VV كنيسة في النرويج احترقت إلى رماد عندما قام شباب ملحدين متحمسين بتفعيل الحملات الكلامية التي أكّدت على شر الدين وخطورته. من الواضح أيضاً أنك نسيت دعوات النفير التي أطلقها بعض من عظماء المفكرين الملحدين في الماضي القريب. باكونين ولينين على سبيل المثال، كلاهما ادّعى أن الدين فيرس يحتاج للقضاء عليه — كلاهما روّج إلى – ونفّذ — عمليات قتل المؤمنين باعتبارها واجب اجتماعي. بفعلهما ذلك كانا فقط يطوّران فلسفة **نيتشة:**

"أُسمّي المسيحية اللعنة العظمى، الفساد الأخلاقي الحقيقي، الغريزة العظمى للانتقام، والتي لا يوجد ما يُضاهيها سمّية وسرية حقارة. أُسمّي المسيحية القذارة اللاأخلاقية الأكبر في حياة البشرية"

أما كاتب ملحد آخر في تبريره للهجوم على الذين يؤمنون بإله المسيحية يكتب:

"إنّ أية طرائقية معادية للمسيح عند هذه النقطة سوف تتضمّن تعزيز القوة، وتثقيف المجتمع بطرق العلم والمنطق، واتخاذ تدابير ضد البقية الباقية من المؤمنين. على المجتمع الجديد أولاً أن يرسّخ نفسه، وأن يصل إلى نقطة من الاكتفاء الذاتي الاقتصادي والنمو في النواحي الفكرية والاجتماعية والاقتصادية والتكنولوجية والثقافية. ما إن يتحقّق ذلك، فإن إعدام المسيحيين واليهود المتشبثين بمعتقادهم لن يزعج أي شخص". مُقتبس من موقع انترنت Church Arson).

بالطبع سيكون من الخطأ الفادح أخذ كلمات وأفعال حفنة من المتطرفين الملحدين كمؤشر على ميول الملحدين بشكل عام (تماماً كما هو من الخطأ ن تأخذ أفعال وأقوال حفنة من المتطرفين "المسيحيين" كمؤشر على المسيحية). لكن رجاء ضع في اعتبارك أن لهجتك وكلامك قد يأتي بتبعات على نفس جدية تبعات لهجة وكلمات بعض المتطرفين الدينيين.

---

٥١ مدينة نورمبيرج كانت لها أهمية كبيرة في عهد النازية. فعلاقتها بالامبراطورية الرومانية وكذلك موقعها المكزي في ألمانيا جعلا الحزب النازي يختارها مقر للمؤتمرات النازية الحاشدة. في عام ١٩٣٥ دعا هتلر إلى اجتماع البرلمان في نورمبيرج لإقرار قانون سحب الجنسية الألمانية من اليهود

ثانياً، أنت لا تشارك في مناظرات – وهو ما يعزّز الانطباع بأنك تعرف فقط أنك على صواب، وأنه لا شيء في الحقيقة لمناقشته. ويعزّز ذلك أيضاً الانطباع بأنك تعمل داخل إطار نظرة كونية مُنغلقة. من هذه الناحية، فإن موقعك على الانترنت يحتوي من المتطرفين المصدّقين أكثر مما يحويه كثير من المنتديات الدينية التي أعرفها. ناحية أخرى يمكن من خلالها وصفك باعتبارك أصولي هو الطريقة التي تهاجم بها أي من يجرؤ على الاختلاف معك، والطرب الذي تستعرض به الكتب التي تدعم وجهة نظرك. مثال ذلك عندما هاجمت الأم **تيريزا** ووصفتها بأنها امرأة نصّابة لا تستحق جائزة نوبل وأنها "مُنافقة مُرائية"، وكل ذلك بناء على كتاب عدائي واحد قرأته.

ثالثاً: أنت تسخر وتستهزئ وتسيء في تقديم من يختلفون معك. من السهل فعل ذلك عندما لا تدخل في مناظرة معهم، ولكنه بالتأكيد ليس من الإنصاف. كما أشار **سي. إس. لويس** "الواحد من بين هؤلاء يشيّد نسخة من المسيحية تتراءى لطفل في السادسة ويجعلها هدف هجومه"[٥٢] .

الفصل الثامن مثالاً يمتلئ بأسوأ الأمثلة على هذا النوع من "المِنطَقة". تحكي قصة "عبد الرحمن" والذي حُكم عليه بالموت بسبب تحوّله إلى المسيحية. وهذا في أفغانستان المُحَرَّرة العصرية التي أنشأناها، والتي يموت جنودنا من أجل الدفاع عنها. ثم تساوي بين طالبان الأفغانية و "طالبان الأمريكية". يفتقر ذلك إلى الإخلاص والأمانة. في حين أن هناك أوجه كثيرة من الارتباط بين سياسات اليمين وبعض التوجّهات الإيفانجيليكية في الولايات المتحدة والتي لا أكاد أطيقها، فمن الواضح أن مقارنتهم بالطالبان في أفغانستان خطأ. لا أحد (حتى من الأكثر تطرفاً) يطالب الدولة بقتل من يتحولون إلى دين آخر، لا أحد يطالب بمنع تعليم الفتيات، أو أن على كل امرأة أمريكية أن تتغطّى من أعلى الراس إلى أدنى القدم. للجاهل قد تبدو المقارنة بين الطالبان وبين المسيحية مقارنة مُحكمة وتبرير إضافي لرفضه للمسيحية. لكن ذلك فقط في عيون الجاهل. وأنت لست جاهل وتُدرك ذلك.

---

٥٢ C. S. Lewis , Mere Cristianity - ١٩٥٢

مثال آخر تستخدمه للتطرّف هو الأب **فريد فيليب** من كنيسة (ويستبورو) المعمدية، وعضو مجموعة "الله يكره الشواذ" سيئة السمعة. "من السهل تجاهُل على فريد فيليب باعتباره مجنون، لكنه مع ذلك يتلقى كثير من دعم الناس وأموالهم". بل إنك تستعرض كدليل على هذا حقيقة أنه منذ **١٩٩١** كان قادر على تنظيم تظاهُرة كل أربعة أيام. هل حقيقة أن أحداً يسعى للترويج لنفسه يستطيع تنظيم حفنة من الأشخاص كل أربعة أيام لحمل لافتات بغيضة هو دليل على أن الدين خطر؟ هل تلوم حقاً الأم تيريزا، بابا الفاتيكان، بيلي جراهام، وألف مليون مسيحي عبر العالم وحتى شخصي أنا على قول وفعل كل معتوه يعبّر عن عدم اتزانه العقلي والعاطفي بمُصطلحات دينية؟ ليس هذا سوى على نفس درجة منطقية افتراضي أنه بما أنّ **د.جوزيف مينجيل**[٥٣] كان عالماً فإن كل العلماء يستحقون اللوم وبالتالي ينبغي حظر العلم بمُجمله. الفكرة هي أن بإمكان أي شخص كتابة لائحة بأسماء أشخاص هامشيين غير متزنين عقلياً في أية مجال. وهذا لا يُبطل المجال أو يجعله شريرا.

لديك سبب جيد لمساواة المسيحية بالأمثلة الهامشية غير المتوازنة. إذ يناسبك أن تتفق مع مثل هؤلاء المتطرّفين أو المعتوهين حول ماهية المسيحية. ولهذا السبب تُجري لقاءات مع المتطرفين. تنشئ حولك أخيلة مآتة (عرائس من القش) مما يجعلك تبدو أكثر عقلانية. لكن ذلك هو أسلوب الأصولي الذي يسعى لإثبات أنه وحده من يمتلك الحقيقة، وليس أسلوب الشخص المتسائل أو الباحث عن الحقيقة. قبل سنوات مضت حضرت لقاء كان فيه المتحدّث ثيونومي[٥٤] هو **جريج بانسين** المتوفى. كان غالبية ما قاله ممتاز، لكنه قام بقفزة كمّية عندما حاول إثبات أن العهد القديم وشريعة موسى بما في ذلك العقوبات، ينبغي تنفيذها من جانب الدولة اليوم. عندها أصابني مثل كثير من المسيحيين هناك صدمة من جراء استيعابه الخاطئ للإنجيل. لكن كانت هناك مجموعة من الحضور يؤيدون وجهة نظره ويتّفقون مع تفسيره للإنجيل – الغرابة أنهم كانو من الجمعية العلمانية الإنسانية. أنت في حاجة إلى المتطرفين الدينيين من أجل إثبات وجهة نظرك، ومن ثمّ هم في حاجة إليك. إنه نوع من الإعجاب الأصولي المتبادل حيث كلا الطرفين يبرّر تطرفه باقتباس ما يقوله الخصم.

---

٥٣ طبيب نازي ألماني كان ضابطاً في معسكر اعتقال أوشفيتز بيركيناو ومعروف باسم ملاك الموت باسم التجارب التي كان يُجريها على المساجين والتي يحدد بموجبها من ينبغي قتله ومن ينبغي استخدامه بين العمّال

٥٤ الثيونومية هي نظرية من اللاهوت المسيحي ترى أن الله هو المصدر الوحيد للقوانين الإنسانية ومعنى الكلمة (قانون الله)

بلاء متفشي في كلا المنزلين.

أنت تدرك ذلك، ومن ثمّ تحاول تبرير الارتباط بقولك "حتى الديانة البسيطة والمعتدلة تساعد على توفير المناخ الإيماني الذي يزدهر فيه التطرف بصورة طبيعية". هل ترى أنه سيكون من الإنصاف أن أشير إلى أن المناخ المعتدل والبسيط المُناهض للدين هو أيضاً يساعد على توفير مناخ الكراهية والإقصاء الذي يزدهر فيه التطرف بشكل طبيعي؟ مرة أخرى تتهرب من ذلك باستخدام تعريفك الخاص للإيمان ورفضك الاعتراف بالخير الذي يفعله المتدينون من مُنطلق دينهم. أنت تُعرّف الإيمان بأنه تصديق شيء دون وجود دليل عليه – مجرّد تعريف ابتكرته في رأسك ولا علاقة له بالمسيحية. إن إيماني مبني على البراهين. في اللحظة التي تثبت فيها بطلان تلك البراهين فسوف أغيّر قناعتي. ولكن بالرغم من أنك تكوّم كل الإيمان والمعتقدات في كومة واحدة فأنت في الواقع – ولأسباب جدلية وسياسية – تخلق خطر محدق.

خذ مثلا مسألة المسيحية والإسلام. يناسبك أن تضعهما معاً في كومة واحدة (بما في ذلك المتطرفين من الجانبين). مقال **بارتيك سوخديوس** بعنوان "أسطورة سماحة الإسلام"[٥٥] والذي تشير إليه، هو مناقشة ممتازة للفروق بين الثيولوجية المسيحية والثيولوجية الإسلامية. الخطر أن مساواتك بين المسيحية والإسلام (بسبب عنادك الأعمى الناشئ عن كراهيتك للدين) سوف تنتهي وقد قدّمت للإسلام نصر مبين– على الأقل في أوروبا. العلمانية لا تستطيع أن تتحمّل ولا أن تتعامل مع الإسلام – فليس لديها التكوين الفكري والأخلاقي والروحاني لفعل ذلك. إذا كنت لتدمّر المسيحية (كما هي بُغيتك) فلن يترك ذلك سوى فراغ أخلاقي وروحاني في غرب أوروبا لن يملؤه إلا إمّا فاشية جديدة أو الإسلام. وعندها سوف تكتشف على أرض الواقع أن كل الديانات ليست مُتشابهة.

بالرغم من كل ما سبق فلا زالت الحقيقة البديهية عند الكثيرين أن "المتديّن" تعني بالضرورة "شرير" وأن يُنظر للدين على أنّه سبب للانقسام. أقول أنه في الحقيقة ، كما هي الحال غالباً، الأمر أكثر تعقيداً من ذلك. في دراسته "الاستبعاد

---

٥٥ The Spectator – ٣٠ July ٢٠٠٥

والاحتواء: الاستكشاف الثيولوجي للهوية، والآخر، والحلول الوسط"[٥٦]، يستكشف **ميروسلاف فولف** الطرق المعقّدة التي يظلم بها الإنسان الآخر، والثغرات التي تستطيع من خلالها الرغبة الإنسانية في تعريف الذات أمام الآخر أن تُفسد الديانة. بصيغة أخرى، فليست المشكلة أن الناس في الأصل خيّرون وأن الدين يقلبهم إلى أشرار، ولكن أن الناس سوف يستغلون أي شيء – بما في ذلك الدين – من أجل تبرير سلوكياتهم الأنانية.

قبل أن ننتهي دعنا نعود إلى سؤال: من أين جاءت الديانة؟ ولماذا الناس متديّنون؟ كما أشرت فقد أخبرنا عالم النفس التطوّري **بول بلوم** أننا بطبيعتنا ثنائيين (نؤمن بوجود مبدئين متعاكسين في كل شيء) نؤمن بأن هناك فرق بين العقل والمادة. بل هو يفترض حتى أننا أكثر ميلاً فطرياً لأن نؤمن بالخلق. **دورثي كيلمان** تشير إلى أن الأطفال فطرياً مؤمنون. في الواقع سوف أتفق مع ذلك، وبالتالي سوف أشير إلى أن ما تقدّمه من دليل يتناقض مع أسطورة إلحادية أخرى – أن الناس متديّنون فقط لأنّهم تعرّضوا أثناء طفولتهم لغسيل مخ. إنّ الحقيقة الفعلية هي أنّ الوضع الافتراضي للبشر أن يكونوا متدينين. يستدعى الأمر التعرُّض لتعليم "علماني" من أجل الارتقاء بهم إلى "درجة أعلى من الوعي" (بصيغة أخرى، من أجل مساعدتهم على إنكار ما هو من الطبيعي أن يؤمنوا به).

هل بإمكاني تقديم اقتراح مؤقت لك؟ أن سبب قيام الناس بالعبادة هو وجود كيان ما ليُعبد؟ أن سبب أن لدينا حس إلهي (على نقيض الحيوانات الأخرى – متى رأيت لآخر مرة أرانب تقيم صلاة جماعية أو قطيع بقر يقيم قدّاس صلوات؟) هو أن الله منحنا هذا الحس؟ أن سبب كوننا روحانيين هو أن لدينا روح؟ كما يدّعي **سي. إس. لويس** "لا تولد الكائنات برغبات ما لم توجد وسيلة لإشباع تلك الرغبات. الرضيع يشعر بالجوع: حسناً هناك شيء اسمه الطعام. البطة الصغير تريد السباحة:حسناً هناك شيء اسمه الماء. الرجال يشعرون برغبة شهوانية: حسناً هناك شيء اسمه الحميمية. إذا وجدت في داخلي رغبة لا يمكن لتجربة حياتية أن تشبعها، فإن أكثر التفسيرات احتمال للصحة هو أنني مخلوق من أجل عالم آخر"

---

٥٦ Abingdon Press , USA - ١٩٩٤

اقتبست التالي في هجومك على هؤلاء منّا ممن خدعهم اعتقادهم في الله: "الخداع الذاتي يخفي الحقيقة عن العقل الواعي أفضل مما يخفيها عن الآخرين... إنّ هناك نزعة واعية لدى البشر لرؤية ما يريدون رؤيته". ربما الحالة معكوسة. ماذا لو أن هناك وهم إلحادي : حيث نخدع أنفسنا إلى الظن بأن الوعي الإلهي الطبيعي داخلنا ليس حقيقي؟ أن الدليل ليس دليل على الإطلاق؟ وأن الله بناء على ذلك لا وجود له؟ هل يمكن ألا يكون الوصف الأنشُودي صحيح؟ "قال الجاهل في قلبه، لا يوجد إله" سفر المزامير **١٤:١**[٥٧]

المخلص ديفيد

٥٧ psalm ١٤:١

الرسالة الثامنة

أسطورة الأخلاق غير الإلهية

عزيزي د.داوكنز

عندما كنت طفل صغير كنت أشاهد بانبهار سلسلة حلقات "**العالم في حرب**" على شاشة تلفازنا (السلسلة متاحة الآن على اسطوانات دي في دي وتُعرض بشكل منتظم على قناة History Channel). التصق مشهد بعينه في ذاكرتي. مجموعة من اليهود الفرنسيين، رجال ونساء وأطفال احتجزهم الجنود النازيين في حظيرة كبيرة. تمّ إشعال النار في الحظيرة وكان أمام اليهود أحد خيارين: بإمكانهم الخروج من الحظيرة ومواجهة الموت بطلقات الرصاص أو البقاء داخلها والاحتراق حتى الموت. لكم أفزعني ذلك حينها ولا زالت ذكراه تصيبني بالفزع. في الحقيقة لقد أصابني ذلك بالاضطراب إلى الحد الذي جعلني أصر على اختيار جمهورية فايمر الألمانية[٥٨] كمادة للدراسات في السنة السادسة بالمدرسة، وبعدها

٥٨ Weimar Germany هي الجمهورية التي نشأت في ألمانيا بين عامي ١٩١٩ و ١٩٣٣ بعد خسارة ألمانيا للحرب العالمية

أخترت دراسة التاريخ في جامعة إدنبرة في بحث عن إجابة السؤال "لماذا؟". نفس السؤال المكتوب على لوحة معلقة **من سربري** تحمل صورة جندي يتلقّى طلقة رصاص في ظهره، وفتاة صغيرة عارية تركض فوق جسر وهي تصرخ بينما النابالم يحرق لحمها. هذا السؤال عن الأخلاقية هو بالتالي سُؤال ذو أهمية كبيرة – ليس فقط لي ولكن لمعظم الناس على ما أعتقد.

أنت تتناول هذا الموضوع الخاص بالأخلاق في الفصل السادس، وبالأخص سؤال لماذا نحن طيّبون. بقدر ما استطعت استيعاب الأمر فإن فرضيتك تدور كالتالي: أنت تُعرّف الخير بأنه الإيثار، وبالتالي تشير إلى أننا نميل لأن نكون مؤثرين تجاه أقاربنا لأننا مُصمّمون جينياً على الاهتمام بهؤلاء المُحتمل حملهم لنسخ من نفس الجينات التي لدينا. بالإضافة لذلك فهناك الإيثار المتبادل – نظرية أن تحك ظهري وأحُك ظهرك. القرابة والإيثار المتبادل هما القاعدتين اللتان يقوم عليهما التفسير الداروني للأخلاق. وتضيف على ذلك قاعدة السُمعة (نودّ أن يرانا الناس خيّرين)، إلى جانب فكرة أن العطاء الإيثاري قد يبدو كنوع من التفوُّق بحيث يكون وسيلة لشراء الترويج الذاتي. كذلك تُفسّر أخلاقيات "اللطف" و"التعاطف" باعتبارها أخطاء دارونية مُباركة. وهذا كل شيء. ها هو التفسير الداروني للأخلاق.

لكن هناك الكثير من المشكلات مع هذا التصور.

أولا، لا يبدو ذلك في الحقيقة كأخلاق. فلا زالت الأخلاقيات في جوهر هذا التصوّر مُرتكزة على جين النانية. كله يدور حول أنا وأنا وما لديّ وما أكسبه. كمسيحي أعتقد أن الإنجيل يخبرنا أن الإنسان أساساً هو كائن أناني ومُرتكز حول ذاته – ومع ذلك فالإنجيل لا يتركنا هناك بسعادة. بل يخبرنا بأن هناك ما هو أفضل. لقد جاءنا المسيح من أجل أن يشجّعنا وينقذنا من التمركُز حول الذات، ذلك التمركُز الذي تقدّسه أنت باعتباره أصل الأخلاق.

ثانياً: أن فرضيتك تقوم على التسيير الحتمي. لا توجد فكرة الإرادة الحرة، الاختيار، أو المسئولية. نحن طيّبون فقط لأننا

الأولى، نسبة لمدينة فايمر بوسط ألمانيا. وفيها تمت صياغة الدستور الألماني للجمهورية حتّى تمكّن أدولف هتلر من إحكام سيطرته على الحكم.

مُبرمجون على تلك الحالة. إذا لم تكن إرادتي حرة فلا يمكنك لومي إذا فعلت فقط ما أنا مُبرمج جينياً لفعله. مشكلة مثل ذلك التصوّر أنه يُشرعن كل أنواع السلوكيات؛ من السِكّير الذي يدّعي أن ذلك في جيناته، إلى المُغتصب الذي يدّعي فعله فقط لما هو مُبرمج لفعله. من الناحية الأخرى، إذا كنت إنسان حر ومسئول عمّا أفعله، فلا يمكن أن أكون مُبرمَج جينيا. لا أنكر وجود عوامل وراثية في جميع أشكال السلوك الإنساني لكني غير قادر على تصديق أن كل إنسان وأن جميع تصرفاته محكومة بذلك التسيير الحتمي. إن جزء جوهري من كونك إنسان هو أن لديك القدرة على الاختيار.

ثالثاً: أخلاقياتك العلمانية كما تعترف هي ليست مُطلقة؛ "لحسن الحظ مع ذلك لا ينبغي أن تكون الأخلاقيات مُطلقة". كما توضّح فهي قابلة للتغيير وفق أهواء المجتمع. في الحقيقة، إذا كنّا – كما يضعها فيلسوفك المفضل **برتراند راسيل**– لا نزيد عن "تراكمات ضئيلة من الكربون غير النقي والماء تزحف لعدة سنوات ثم تتحلل من جديد إلى العناصر التي تكونت منها"، فلن يكون هناك أي أساس لأخلاقيات مُطلقة بالفعل. أنت تدرك ذلك وتُعبّر عنه حين تقول: "من الصعب الدفاع عن قيم مُطلقة من أية زاوية سوى المرجعية الدينية". ما هي أهمية ذلك؟ لأنه إن لم يكن هناك مُطلق فلا يوجد معيار نهائي للاحتكام له. وإذا لم يكن هناك معيار نهائي نجد أنفسنا عُرضة لمبادئ مثل (كل شيء مباح)، (القوة تعني الحق)، ونصبح نهباً نزوات مجتمع حائر ودائم التغيّر.

وفي النهاية، لا يمكن لفلسفتك الدارونية المُطلقة أن تدافع باتّساق ومنطق عن الأخلاق لأنه – بصراحة مطلقة – لا يوجد خير أو شر. كما تصف الأمر بعبقرية في كتاب "صانع الساعات الأعمى": "في عالم تحكُمه القوى الفيزيائية العمياء والاستنساخ الجيني، سوف يتعرّض بعض الناس للأذى، وسوف يكون بعضهم محظوظا. لن يوجد فيه أي منطق أو تناغم، ولا أية عدالة. الكون الذي ننظر له يتضمّن بدقة الخصائص التي ينبغي أن نتوقعها إذا كانت جذوره بدون تصميم، ولا هدف، ولا خير ولا شر. لا شيء سوى لامبالاة عديمة الرحمة". تلك إذن هي القاعدة الإلحادية للأخلاق: لا عدالة، لا إيقاع، لا منطق، لا هدف، لا شر ولا خير، فقط لا مبالاة عديمة الرحمة. لا عجب إذن من السعي اليائس لفلاسفة الملحدين لمحاولة تأسيس بعض قواعد الأخلاق غير الإلهية. بالرغم من الجهود الكبيرة لفلاسفة ملحدون مثل

بيتر سينجر، **برينستون** بروفيسور الأخلاق الحيوية والمناظر الإلحادي الرائد، فلا تزال قواعد الأخلاق غير الإلهية مُفتَقَدة بشكل مؤكّد، كونها مجرّد مبادئ نفعية تقوم على (الخير الأعظم لعدد أكبر) دون تعريف ما هو "الخير" على الإطلاق.

أظنك تدرك أن تلك هي ثغرة الإلحاد، ولذلك تستمر في الهجوم – بالاستهزاء من الأخلاقيات المسيحية. لا بد من الاعتراف أن هناك كثير من الاشياء تُقترف باسم الدين، بما في ذلك الديانة المسيحية، والتي لا عذر لها. وأن سلوك كثير من المسيحيين يترك الكثير لنتمنّاه في سلوكياتنا. ومع ذلك فينبغي أن تكون حريصاً قبل انتقاد المسيحية ككل على أساس سلوكيات بعض المسيحيين الذين يفشلون في أن يكونوا مثاليين، أو الذين بينما يحملون توصيف مسيحي فإنهم لا يحملون من الإيمان المسيحي أكثر مما تحمله.

إن ادّعاءك الأضخم ضد الأخلاق المسيحية هو الإنجيل نفسه (سوف نتعرض لذلك في الفصل التالي)، لكنّك هنا تقوم بمحاولات التشتيت من جديد عدة مرات.

أولا، في بداية الفصل تقتبس عدد من الرسائل التي تلقّيتها من أشخاص تقول أنهم مسيحيون. تحتوي تلك الرسائل كلمات فارغة، تهديدات بالعنف ولهجة سخيفة. لماذا اخترت الإشارة إلى تلك الرسائل في بداية فصل يتحدث عن الأخلاقيات؟ مرة أخرى لأن تلك هي مناورتك المفضلة. انظروا كم هم أغبياء وجهلة وعنيفين وغير أخلاقيين هؤلاء المسيحيين، وبالتالي فالأخلاق المسيحية هي نفس المستوى. هناك دفاعين سهلين أمام ذلك. أولاً، وفق التعريف فلا يمكن أن يكون هؤلاء مسيحيّون، أتباع المسيح الذي قال لحواريه أن يُعطوا الخد الآخر لمن يلطمهم على خدّهم، لا أن يهدّدوا بالعنف، ولا أن يستخدموا الكلمات النابية، وأن يحبّوا أعداءهم. ثانياً، ماذا تقول لو أنني اقتبست الآتي من على موقعك على الانترنت:

إن ديفيد روبرتسون شخص محدود العقل ومغرور، فليأخذ هذا في *** المتخلف الغبي كخنزير! احذر ديفيد، فقد تأخر جن السماء في المجيء مرة ثانية وسوف يكون غاضب منك. لماذا يجادل أي شخص مثل ذلك المعتوه؟ هو لا يعرف كيف يجادل! إن لديه من المهارة الفكرية ما لدى أي شخص فاشل

أتمنى لو يعود *** للحياة ويقبلك. انا مبهور أن بعض الأشخاص هنا يهتمون بمناقشة هذا الروبرتسون الساذج. من الواضح أنه مجنون لا منطق له ولا عقل لديه. إذا تناقشت معه، فتوقّف عن إبداء الاحترام لأوهامه، مهما قدّمها ببلاغة، ورجاء التعامل معه بما يستحقه من احتقار وازدراء.

(مؤخرة)، (متعصب)، (أحمق). في الحقيقة أن هناك صفحات وصفحات من تلك الاشياء. من الواضح أن موقعك على الانترنت يؤدي دوراً كنوع من المراكز العلاجية لبعض الأشخاص، لكن هل تظن أنه من الإنصاف أن أقول إذن أن جميع الملحدين يتّسِمون بالفظاظة والجهل والغِلظة؟

محاولة التشتيت الثانية التي تلجأ إليها هي الإشارة إلى أن الأخلاق المسيحية لا يمكن أن تكون ذات شأن ما دامت تتطلب التهديد بالجحيم أو نوع من العقوبة من أجل أن تجعل الناس يسلكون سلوكيات حسنة. تقتبس عن **أينشتاين**: "إذا كان الناس طيّبون فقط خوفاً من العقوبة، وطمعاً في المكافأة، فيالنا إذن من بشر مأسوف عليهم". **أينشتاين** على صواب على الأقل في شيء واحد. نحن بشر مأسوف علينا. ها هو اختبار بسيط من أجلك. هل تود أن يتم إلغاء البوليس من أكسفورد؟ هل تظن أن على التلاميذ في جامعتك أن يتلقّوا تهديد بالعقوبة إذا ما قاموا بالغش؟ أم هل تظن أنه ينبغي أن يتلقوّا درجات أعلى إذا أدّوا أداء أفضل من أقرانهم؟ بالطبع إذا كان تلامذتك يدرسون ويمتنعون عن الغش فقط خوفاً من العقاب أو طمعاً في مكافأة ما فيالهم من مأسوف عليهم! لا شك أنك ترى مغالطة تلك الحجة. يدرك الإنجيل مدى تعقيد النفس البشرية واحتياجها لمنظومة من المكابح والموازين لمساعدتها – لكن هاهو صلب الموضوع، إن تعاليم الإنجيل ليست بالأساس أخلاقية. بل هي أكثر راديكالية من ذلك. إذا كان الأمر يقوم على العصا والجزرة فقط، لكان الإنجيل يعترف فقط بحالة الإنسان كما هي عليه – وليس أن يحاول تغييرها لما هو أفضل.

دعنا ننظر إذن إلى الموقف الاخلاقي للمسيحية والسبب الذي يجعله لدى البعض أكبر دليل على وجود الله.

١.الإنجيل يفسّر الشر. ليس السؤال هو "لماذا يحمل الناس الخير؟" ولكن السؤال "لماذا يحمل الناس الشر؟". تبدو

نظرتك إلى الشر وكأنها نابعة من خلفيتك الإنجليزية اللطيفة الناشئة في الطبقة الوسطى. هي نظرة تفاؤلية بشكل ميئوس منه، وغير واقعية فيما يخص الطبيعة البشرية : (أنّ طبيعة البشر أساساً هي الخير وأنهم يزدادون خيراً مع مرور الوقت). تذكّر السؤال الذي ذهبت إلى الجامعة لكي أجيب عليه – كيف أمكن لأمّة متحضرة ولائقة مثل الشعب الألماني أن يسمحوا لأنفسهم بالوصول إلى وضع قاموا فيه بإبادة ستة ملايين يهودي بالإضافة إلى بعض الشواذ والغجر والمسيحيين؟ من السهل في تلك الظروف، وبمساعدة عشرات السنين من الشُرَطية الهوليودية، أن نصدق أن العالم منقسم إلى أخيار وأشرار، وأن نفترض ببساطة أن الألمان كانوا أشراراً، أو أن هتلر كان شيطان مجنون. لكن بحثي أرشدني إلى استنتاج أن الألمان كانوا مجرّد بشر عاديين، وأن هتلر كذلك كان مجرد إنسان. في الحقيقة لقد كان هناك الكثير من الجدل قبل عدة أعوام عند عرض فيلم السقوط Downfall في ألمانيا حيث تم تجسيد هتلر وكأنه كائن بشري. الإنجيل يخبرنا بما كنّا لنعرفه لو أننا فتحنا عيوننا: أن البشر ضائعون. كما وضعها **فريدي ميركوري** آخر أعضاء فريق كوين، في اغنية Live Aid : "إذا كان هناك في الأعلى إله.. رب الحب.. فياترى ما عساه يقول.. عن الفوضى التي فعلناها.. عن العالم الذي خلقه؟"

٢.ان الإنجيل يفسر الكون. هل سبق لك أن قرأت كتاب **سي. إس. لويس** "المسيحية المجرّدة" عن "الصواب والخطأ كعلامة على مغزى الكون"؟ فهو يلخّص أفضل من أي شخص آخر سبب كون القانون الأخلاقي دليل قوي على وجود الله. كتب يقول "إنّ البشر في كل مكان من الأرض، لديهم تلك الفكرة العجيبة بأن عليهم التصرّف بشكل مُعيّن، ولا يمكنهم في الحقيقة التخلّص من ذلك. ثانياً هم يعرفون أنهم غير قادرين على التصرُّف بهذه الطريقة. هم يعرفون قانون الطبيعة فيكسرونه. تلك الحقيقتان هما اساس كل رؤية واضحة لأنفسنا وللكون الذي نعيش فيه". يشير لويس إلى أن هناك دليلان واضحان على وجود الله – الأول هو الكون الذي خلقه. الثاني هو القانون الأخلاقي الذي يدّعي أنه أفضل قطعة معرفية لأنها "معلومات من الداخل". واحد من الاعتراضات الكبيرة التي سوف تكون لدى كثير من الناس على فكرة أن الله خلق الكون هي ما تبدو عليه الأمور من قسوة وظلم. لكن كما يسأل

لويس، كيف لنا أن ندرك معاني القسوة والظلم من الأساس؟ ما الذي بداخلنا لكي يمنحنا إدراك ما هية الخير وما هية الشر؟

٣.الإنجيل يفسرني. بالنظر إلى ترويع الهولوكوست فقد كانت أكثر تجربة مُريعة ووضيعة ليس فقط عند إدراك أنّ النازي كان بشراً، ولكن أنني أنا الآخر بشر. نفس الشر الذي أثمر هذا الثمر الرهيب في النازي كان ايضاً، على الاقل كبذور، موجود في داخلي. قراءة كتب مثل كتاب **جيتا سيريني** "البرت سبير، ومعركته مع الحقيقة"[٥٩] كان تجربة واقعية. كما لخص الأمر **جي. كي. شيستيرتون** في رسالة مُحكمة إلى التايمز قال فيها: "عزيزي المحرر: ما مشكلة هذا العالم؟ إنّها أنا"

لكن دعنا نعود إلى المنظور الإلحادي للأخلاق. أتقبّل تماماً أنك لست داروني اجتماعي. فأنت تدرك أن ذلك ليكون خطأ. ومع ذلك أتساءل عن كيفية إدراكك ذلك. فلنضع ذلك على الجانب، مخاوفي أنه ما أن يُصدّق المجتمع ككل افتراضاتك المسبقة الأصولية (أنه لا وجود للمُطلق في الأخلاق، أن الأخلاق تتغير، وأن الطبيعة البشرية مُسيّرة جينياً) فسوف نُصبح فوق مُنحدر زلق يأخذنا نحو المجتمعات الإلحادية التي سبق للعالم تجربتها من قبل (مثل تجربة ستالين في روسيا وتجربة ماو في الصين). أنا لا أدّعي أن كل الملحدين غير أخلاقيين ولا أن كل المصنّفين مسيحيين هم أخلاقيين. كل منا يعيش على مسافة من مبادئه. لكن مع ذلك ففي المسيحية توجد مكابح، موازنات، ونقاط نظام، ولا يبدو واضحاً للوهلة الأولى أن نفس الشيء ينطبق على الإلحاد. إذا لم يكن هناك خير مُطلق أو شر مُطلق فكيف يمكن لنا أبداً إعلان أن شيء ما هو صواب أو خطأ؟

خذ على سبيل المثال قضية الإجهاض التي تتناولها في الفصل الثامن. أشرت إلى حقيقة مذهلة، أن "المعارضة القوية للإجهاض تكاد تكون جميعها من أوساط المتديّنين بعمق". تلك حقيقة دائماً ما أربكتني. من المؤكد أن أي عالم يعرف

---

٥٩ Random House - ١٩٩٥

أنه لا يوجد شيء يمتلكه الرضيع خارج الرحم لا يمتلكه أيضاً داخل الرحم. لماذا إذن يُعتبر من حقوق الإنسان أن يُسمح للمرأة بقتل رضيع في الرحم وليس خارجه؟ بل وهناك سؤال آخر في هذا الموضوع يثير دهشتي. في الهند هناك ٥٠٠ ألف جنين أنثى يتم إجهاضهم كل عام لأنهم إناث. من الطبيعي أن تعترض المجموعات النسوية على هذا النوع من الإجهاض الانتقائي. لكن لماذا؟ لماذا قد ترغب المدافعات عن حق الإجهاض التدخُّل في حق المرأة في اختيار ألا تحظى بطفلة أنثى؟ أليس في النهاية هو جسد المرأة؟ إلى جانب ذلك، فإنه في عيون المدافعات عن الإجهاض، ما يتم إجهاضه ليس طفلة وإنما "مشروع طفلة". التضارب في المواقف مدعاة للسخرية.

بالطبع ما أن نتناول التبسيط غير العلمي "المرأة لها الحق في اختيار قتل الطفل داخل الرحم وليس خارجه"، حتى يمكننا الانتهاء مع كل أنواع الصعوبات. يدّعي **بيتر سينجر** ان "الأجنة المُختلّة عقلياً ليس لديها من الحقوق أكثر ما لبعض الحيوانات"[٦٠]

بيل هاملتون والذي تعزو إليه فضل الكثير في كتابك "الجين الأناني" – والذي تعتبر كتاباته حماسية وحيوية وغنية بالمعلومات – كان عالم أحياء داروني ممتاز، وكانت أراؤه بالتأكيد تعبّر عن نوع مختلف من الأخلاق. ذات مرة قال أنه يتعاطف مع نبات السرخس المنعزل أكثر من تعاطفه مع طفل باكي. يعتبر أن الذكور ملعونين بلعنة التنافس وأن هدف الجنس هو تنقية بركة الجينات باستبعاد الضعيف وعديم الفائدة. الرجال ذوي المكانة الضئيلة أفضل حالاً وهم موتى. كل شيء في الطبيعة طبقاً **لهاملتون** يمكن تفسيره كنتيجة التنافس بين الجينات. هو يدعو إلى برنامج راديكالي لقتل الأجنّة، تحسين النسل، والقتل الرحيم من أجل إنقاذ العالم. ويعتقد أن الطب الحديث يُسبّب الضرر حين يسمح للضعفاء بالبقاء على قيد الحياة، ومن ثم يؤدّي إلى الحفاظ على جيناتهم من الاندثار. المثالين المحددين له حول ذلك كانا الولادة القيصرية والنظارات التي يرتديها جون مايناردسميث[٦١]. النظارات في رأيه كانت رمز للتّدهور في البركة الجينية. والولادة القيصرية ينبغي في رأيه السماح للمرأة بها مرة واحدة وبشرط أن يكون هدفها إنقاذ حياة الأم – وبعد ذلك ينبغي أن تتلقى الأم

---

٦٠ Independent Extra – ١٣ September ٢٠٠٦

٦١ مُنظّر انجليزي وعالم أحياء وجينات تطوّري

منحة مالية مقابل عدم الحصول على أي أطفال أخرى.

كانت نظرة **هاملتون** للطب الحديث قائمة على تحسينية النسل، حتى أنه اعتقد بأن الممارسات الطبية الوحيدة المقبولة هي مُسكّنات الألم والجراحة. صرّح بأن الإبادة الجماعية كانت نتيجة زيادة النسل، وأنه لِيحزن على موت باندا عملاق واحد أكثر من حزنه على موت "مائة صيني غير معروف". كذلك ادّعى أن المعاق ينبغي قتله عند الولادة. وفي مناقشته لما أسماه "السعادة الشاملة" قال :"لدي القليل من الشك في أنني لو حاولت البقاء على قيد الحياة على جزيرة روبنسون كروزو مع زوجتي، لكنت بالفعل لأقتل طفل عاجز بيدي". في ذلك هو و**سينجر** قد يكونا على نفس الطريق.

ربما أن الأراء السياسية والاجتماعية المتطرّفة **لهاملتون** هي في الحقيقة استثناء. ولن يكون من الصواب تلطيخ كل علماء الأحياء بنفس الفرشاة. هذا حقيقي. ليس علماء الأحياء هم المشكلة، ولكن فقط بعض علماء الأحياء والذي يتصادف كونهم أيضاً ملحدون، والذين لا يقبلون فكرة القيم المُطلقة. وبينما قد يكون **هاملتون** على جانب التطرّف، فإن هناك عديد آخرين ممن حاولوا الوصول إلى الاستنتاج المنطقي وراء إلحادهم المادّي. بعض من كبار علماء الأحياء التطوّريين في القرن العشرين كانوا أشخاص، تبنّوا اراء سياسية متطرفة، كنتيجة لفلسفتهم الإلحادية وعدم فهمهم لحقيقة دور العلم. **كونراد لورينز** كان نازي متحمّس. **جي.بي.إس. هالدين** كان ستاليني متحمّس. و **آر. إيه. فيشر** اعتاد على ادّعاء أن الحضارة مُهدّدة بسبب عدم حصول سيدات الطبقة الراقية (جودة الجين) على عدد كافي من الأطفال.

ربما في وقت ما قد يشير شخص ما إلى أنني أفعل نفس الشيء الذي أتهمك بفعله مع الآخرين — بالتحديد انتقاء بعض التطرّف واستخدامه لإدانة الجميع. لكن الاختلاف هو؛ بينما تختار أنت أشخاص هامشيين على الجانب الأحمق من المسيحية فإن الأشخاص الذين أتحدث عنهم هم شخصيات أساسية وفارقة. هل تتخيل رد فعل الملحدين إذا خرج رئيس أساقفة كانتربوري أو بابا الفاتيكان أو بيلي جراهان يطالبون بقتل الأجنة، وحظر الولادة القيصرية، أو تشجيع الطبقات "الأرقى" على التناسل أكثر من الاشخاص العاديين؟ لم نكن لنكتفي من سماع ردود الفعل تلك.

أثناء ذلك، تقتبس عن شخصيات هامشية مثل **فيليب موريس** من كنيسة (ويستبورو) المعمدية بينما تتجاهل تاريخ ملموس في مرجعيات علم الأحياء العلماني الإلحادي لهؤلاء ممن تبنّوا أراء اجتماعية متطرفة. لم يكُن الأمر الأكثر إزعاجا حول النازية هو ما إذا كان مفكّروها ومُنظّروها رجال "طيّبون"، ولكن المشكلة كانت في أسسها الفلسفية والتبرير الذي منحته للشراسة وللظلم. تماماً هو نفس حال الدارونية الاجتماعية حيث يقع استئصال الضعيف وتدمير المعاق على النقيض التام مع المسيحية لتجسّد العدو الحقيقي للإنسانية. أكرّر مرة أخرى وللمرة الألف أنني لا أعني هنا أن جميع الملحدين التطوريين هم في الواقع فاشيين، ولكن ما أود الإشارة إليه هو أن التبعات المنطقية للإلحاد التطوري يمكن أن تقودنا بسهولة كما حدث من قبل إلى مثل تلك الحالات.

المنظور المسيحي للأخلاق ليس ، كما يفترض معظم الناس، أن الإنجيل يعطينا قائمة قوانين لنعيش بموجبها. المسيحيون الفعليون ليسوا أخلاقيين؛ يفكرون أنه فقط لو منحنا مكافأة هنا، وبعض العقوبة هناك، فسوف يتصرّف الأشخاص "المحترمون" بشكل أفضل وسوف يستحقون بشكل ما خطواتهم نحو الجنة. نعرف أنه ليس بمقدورنا سن قوانين ولا استخدام الدين لجعلنا طيّبين. يدرك المسيحيون الحق أن تعاليم الإنجيل ترسم ملامح قيم مُطلقة تقع على مسافة منّا جميعا. لا يوجد أي قدر من التديّن، والأعمال الصالحة، وأفعال التقوى يمكنها أبداً أن تجعلنا على صواب. هنا تتدخّل الرحمة والخلاص والصليب وكل الحقائق الرائعة لصنائع الرب. وهو ما يجعل الإنجيل أخبار سارة. ليس لأنه يعطينا قائمة قوانين نعيش بموجبها، أو طقوس دينية لأدائها، ولكن لأنه يتعامل مع أكبر مشكلة في العالم – مشكلة نفس الإنسان الأمّارة بالسوء. من أجل هذا السبب أشاهد كل عام بقصد ديني فيلم قائمة شيندلر، من أجل أن أذكّر نفسي بالسبب الذي دفعني لكي أكون خادم للإنجيل المسيحي. لست أرغب فقط في تفسير الظلام. بل أرغب في هزيمته.

المخلص ديفيد

الرسالة التاسعة

أسطورة الإنجيل غير الأخلاقي

عزيزي د.داوكنز

في الفصل الثالث تعرّضت للإنجيل من بعيد، ولكنّك هنا خضت في أمره حتى ركبتيك. إن الاعتقاد في الإنجيل باعتباره توجيهات أو مثال أخلاقي "يشجع منظومة من القيم والتي سوف يجدها أي شخص متحضّر، سواء متدين أو لا – لا أستطيع أن أضعها بشكل أكثر لطفاً – بغيضة... أولئك الذين يريدون تأسيس أخلاقياتهم حرفياً على الإنجيل هم إمّا أنهم لم يقرؤوه أو أنّهم لم يفهموه، كما أشار إلى ذلك الأسقف جون شيلبي سبونج في "خطايا الكتاب المقدّس" بشكل صحيح".

لقد درست اللإنجيل لأكثر من ٢٥ عاماً. فعلت ذلك لمدة ٢٠ عاماً منها بحكم وظيفتي. حاولت فعل ذلك بعقل

مُتفتّح وبرغبة في معرفة ما يقوله الإنجيل حقا. في بعض الأحيان حيّرني، وجعلني أتساءل، وجسّد أمامي ما بدا لي وكأنه صعوبات مُستعصية. أتمنى أن تعتبرني متخصّص في هذا المجال من الدراسة بقدر ما أعتبرك متخصص كعالم أحياء. إن فهمك للكتاب المقدس مُتطرِّف في إدانته، ويبدو أنّه محكوم أكثر بإلحادك عنه بمعرفتك وفهمك للنص. ومع ذلك فأنت تحكم مسبقاً على الموضوع كله في بداية الفصل بالتضمين مرة أخرى أن أولئك الذين لا يقبلون وجهة نظرك ليسوا متحضرين، أو أخلاقيين، أو أذكياء بما فيه الكفاية لفهم الإنجيل. تلك مرة أخرى هي لحظة جديدة من لحظات (الإمبراطور يمشي عارياً). أنت تشير ضمناً إلى أن أولئك الذي يرون الإنجيل كتاب لا أخلاقي هم أذكياء وأخلاقيين. ليس لديّ على الإطلاق ما يمكن قوله لأشخاص بهذا الافتراض المسبق ولكني دعني على الأقل أحاول مساعدة هؤلاء الذين يميلون لقبول القيمة الظاهرة لنسختك المشوهة والانتقائية من الإنجيل.

في هجومك على الإنجيل تذكر سفينة نوح، قريتي سودوم وعمورة، الخليلة من قبيلة لاوي العبرانية في سفر القضاة، كذب إبراهيم، التضحية بإسحاق، ابنة جيفثاه، العجل الذهبي، هجوم موسى وقسوته على العبرانيين، جميعها في العهد القديم (ولدرجة حسنة أنت تحشر الداعية التلفزيوني ورجل الأعمال بات روبرتسون ومدينة نيو أورليانز، بالرغم من أن علاقة ذلك بالعهد القديم تفوتني). في العهد الجديد يبدو أن اعتراضاتك ترتكز على أن المسيح كان فظاً مع أمّه ولديه قيم أسرية سيئة، إلى جانب مُعتقد الخلاص. كذلك تحاول استبعاد التعاليم الإيجابية في الإنجيل مثل "لا تقتل" و "أحب جيرانك" باعتبارها تعاليم عنصرية في الواقع، حيث تعني في نظرك "لا تقتل اليهود" و" وأحب جيرانك اليهود". وتتمادى إلى حد القول "أن المسيح كان ليتململ في قبره إذا علم أن بولس سوف يُقدّم مشروعه إلى الخنازير". إنها لجولة رائعة لمعجبيك، على منوال الكوميديا التي اشتهر بها جورج كارلين الذي تستشهد به. لكنها على مسافة بعيدة مما يقوله الإنجيل في الحقيقة.

أولا، أي شخص يقرأ الإنجيل في سياقه لا يمكن أن يأخذ على محمل الجد افتراضك أن المسيح جاء فقط من أجل اليهود وأن "أحب جيرانك" تعني فقط اليهود منهم. الحكاية التي سردها المسيح لتوضيح تلك الحقيقة كانت تتضمن شخص

غير يهودي. إعادة كتابتك وقراءتك لتلك المقاطع هي خارج السياق، وغير أمينة، ومرافعة خادعة تعكس أحكامك المسبقة بشكل أكبر مما تعبّر عن حقيقة الإنجيل. أنت تبني معظم ما تقوله هنا على ما تصفه بأنه "بحث جدير" قدّمه **جون هارتونج**، بروفيسور زميل متخصص في الأنيثيسيولوجي (علم التخدير) والأنثروبيولوجي (علم الإنسانيات). الورقة بعنوان "أحب جيرانك: تطوّر الأخلاقيات الجمعية"، ويتضمّن البحث شكر وعرفان لك ولزوجتك، والأكثر إثارة للإنزعاج الاستعراض المتعاطف فيه لكتاب **كيفين ماكدونالد** "ناس ينبغي أن يعيشوا لوحدهم: اليهودية كاستراتيجية تطور الجماعة"[٦٢]. كل ذلك يقترب بشكل مزعج من النظرة "التطوّرية" للدين ولليهودية التي روّجها الأكاديميون والعلماء النازيين. وهي على مسافة مليون ميل مما يقوله الإنجيل في الحقيقة.

ثانياً، كل من بات روبرتسون ونيو أورليانز والثيولوجيات المشوهة المتعددة لبعض المتحدّثين باسم المسيحية لا علاقة لها بتعاليم الكتاب المقدس، وجميعها ينبغي الحكم عليها بناء على استحقاقها بحيث لا تزر وازرة وزر أخرى.

ثالثاً، تحتاج إلى أن تتعلم القواعد الرئيسية لقراءة الإنجيل. لا بد أن تقرأه دوماً في إطار السياق – يشمل ذلك السياق التاريخي، الأدبي، الثيولوجي، والإنجيلي. أن تقرأ خارج السياق يعني أن تُخطئ في الفهم. ثم عليك إدراك أن معظم الإنجيل وصفي وليس مثالي. بصيغة أخرى، هو يخبرنا بما حدث وليس بما كان ينبغي أن يحدث. في الحقيقة ، تلك واحدة من الأشياء التي ساهمت في اقتناعي بصحة الإنجيل. معظم الشخصيات الرئيسية، وحتى الأبطال، تظهر على نحو سيء. تملؤهم النقائص. إذا كان الإنجيل خرافي فما الذي يدعو أي شخص للكتابة عن أشياء مثل ارتكاب ديفيد للقتل والزنا، أو كذب إبراهيم على زوجته؟

الملحدون مغرمون بالجدل ضد ما يعتبرونه تفسير "حرفي" للإنجيل. ومثل بعض المتطرفين، فأنت تعتبر أولئك الذين ليسوا حرفيين بأنهم مجرد جُبناء. لكن الأمر يعتمد حقاً على ما تعنيه بـ"حرفي". عندما يسألني أحد ما إذا ما كنت أقرأ الإنجيل

---

٦٢ Greenwood Press - ١٩٩٤

حرفياً لا يمكنني أبداً إجابة مثل هذا السؤال بشكل مباشر لأنني أحتاج إلى معرفة ما يعنيه السائل أولا. إذا كان يعني هل آخذ كل كلمة بمعناها الحرفي فإن الإجابة هي بالطبع لا. عندما قال المسيح "أنا كرمة العنب" فهو لم يعني أنه أخضر اللون ويُنتج عنبا. أن تقرأ أي نص أدبي بتلك الطريقة، ناهيك عن كونه نص بغزارة مجموعة كتب الإنجيل، لن يكون سوى غباء واضح وظلم للكتاب نفسه. يحتوي الإنجيل على خمسة أنماط على الأقل: النبؤة، الشعر، التاريخ، الرسائل، والقانون. من الناحية الأخرى، إذا كنت تعني بـ"حرفي" أي "بقيمته الظاهرة" فالإجابة نعم، أقرأ الإنجيل حرفياً. تسأل "وفق أي معيار يمكنك أن تقرر أن فقرة ما هي ذات مدلول رمزي وأنّ فقرة أخرى ذات دلالة حرفية؟". الإجابة : عن طريق السياق، ونوع النمط، والمنطق السليم. في الحقيقة لا أتوقّع أن أرتدي الأبيض وأعزف القيثارة في الجنّة (كما في كتاب الوحي) ولكن ليس لديّ شك أن المسيح قام من موته حرفياً. لم يكن ذلك يرمز لأي شيء، ولم يكن مكتوبا كنص شعري ولكن كتاريخ موثّق. وهي حقيقة مُكررة عدة مرات. إن المعنى الذي يقصده الإنجيل عندما يتكلم عن البعث معنى واضح. انتبه، إذا كنت تصدّق فعلاً أن المسيح عندما أمر اتباعه في العهد القديم بعبارة "أحب جيرانك" أنه يعني اليهود فقط، فأظن أن بإمكانك أن تجعل الإنجيل يقول ما تشاء له أن يقوله أو لا يقوله!

هناك مبدأ هام آخر وهو الوحي المتتالي. تلك هي فكرة أن الإنجيل تمّت كتابته على فترة تفوق الألف عام، ليتكشّف أمامنا الرب تدريجيا. شيئاً فشيئاً تنفتح الستارة ويأتي الضوء. ولذلك فإن بعض النواحي من الوحي الأسبق ينسخه ما جاء بعده.

مبدأ هام آخر هو مبدأ تُقدّمه بنفسك عندما تحاول الدفاع عن التصريحات المُريعة لبعض الليبراليين والملحدين المستنيرين مثل **إتش. جي. ويلز** و**توماس هاكسلي**. صرّح الأخير بأنه "ما من رجل عاقل مدرك للحقائق، يؤمن بأن الزنجي العادي يتساوى مع – ناهيك عن أن يكون أعلى منزلة من – الرجل الابيض". ومع ذلك من أجل الدفاع عنهم تقول "إنه أمر عادي ألا يحكم المؤرخين الجيدين على تصريحات من الزمن الماضي بمعايير عصرهم الحالي". تماماً. أرجو أن تطبّق نفس القاعدة بخصوص الإنجيل هو الآخر.

أؤمن بأن الإنجيل هو كلمات الرب؛ ومن تلك الزاوية فإنّه صحيح دون أخطاء، وأنه يقول كل ما يريد الرب له أن يقوله. لا يعني ذلك أنه لا يحتوي مشكلات، لكني أحب أن أقترح أنك إذا قرأته واضعاً في اعتبارك القاعدة الأساسية المذكورة عاليه، فإن ٩٠% من المشكلات تختفي. ومع ذلك تظل هناك ١٠%. من الحماقة إنكار أن هناك صعوبات جمّة داخل الإنجيل. هناك أجزاء منه تجعلني أشعر بعدم الارتياح بحيث أعاني معها. ولكن من أنا لكي أحاكم الإنجيل؟

ليس بعد فترة طويلة من كوني مسيحياً كانت هناك أجزاء من الإنجيل تُزعجني بشدة. قرأت كتاباً زعم تناول معظم تلك الصعوبات؛ ومع ذلك فلم يساعدني كثيرا. لكني أخذت قراراً أنه من الغباء والغرور مني كمسيحي شاب أن أعتقد أن بإمكاني فهم الإنجيل لوحدي، ناهيك عن أن أقوم بتقييمه. لم تكن القضية أنه من الخطأ التساؤل، ولكن أن عليّ أن أكون صبوراً ومتواضعاً ومتأمّلا.

بعد مرور ٢٥ عاماً من دراسته، أصبحت أكثر تقديراً للصدق والحكمة والجمال والاتّساق الموجود في الإنجيل. ليس لأني عليّ ذلك، ولا لأنني أتلقّى راتباً من أجله – بطرق كثيرة كان من الأسهل الاستسلام والسير مع التيار. لكني لم أستطع، بكل إخلاص فكري، أن أستسلم. كنتيجة لذلك وجدت الإنجيل أكثر مصداقية واتّساق من أي شيء آخر. أجد من المدهش عندما أدرّس حتى الأجزاء منه التي تبدو غامضة وصعبة أنها تخاطب احتياجات ورغبات وحياة الأشخاص الاعتياديين الذين يعيشون في القرن الواحد والعشرين. سأخاطر بتخمين أن معظم المتحوّلين للإلحاد من الدين هم أناس لم يشربوا بعمق أبداً من بئر النص المقدس. بالنسبة لي، وبإعادة صياغة كلمات **بي. بي. كينج** عازف الجيتار الشهير: "لم تذهب الإثارة بعد".

من الواضح أن لديك مشكلة ايضاً مع عقيدة الفداء. "لقد وصفتُ الفداء، المعتقد الجوهري للمسيحية، باعتباره شرس، سادوماشوستي، ومنفّر. علينا أن نستبعده ليس فقط باعتباره جنون محدق، لكن لألفته التي بلّدت قدرتنا الموضوعية. إذا اراد الله العفو عن خطايانا، فلماذا لا يسامحنا فقط؟". بينما أنا ممنون أنك على الأقل – على عكس بعض المسيحيين –

أدركت أن عقيدة الفداء هي المعتقد الجوهري للمسيحية، فمن المحزن أنك تتغاضى بوضوح عن أفضل جزء من الإنجيل. لقد كان الصليب دائماً حجر عثرة أمام كل من المتدينين والآخرين الذين يعتبرون أنفسهم حكماء. كاتبة العمود الصحفي في الجارديان الصحفية **بولي توينبي** كانت تعاني من ذلك وهي تُقيّم رواية "الأسد، الساحرة، وخزانة الثياب"[٦٣] عبّرت بعنف عن أنها لم تكن في حاجة إلى أن يموت أي شخص من أجل خطاياها.

لمعظم الناس تبدو فكرة أننا ارتكبنا أي خطأ من السوء بحيث يستحق الموت هي فكرة بغيضة. ولكن ذلك لأنه ليس لدينا فهم كافي للشر والخطيئة. وليس لدينا وعي حقيقي بعمق الفساد المتغلغل في قلوبنا. ما أن تدرك ذلك حتى تجد عقيدة الفداء – فكرة أن يموت ابن الله بدلاً منّي ويدفع ثمن خطاياي – تصبح حقيقة رائعة. إنّه أفضل جزء من الإنجيل كله. ما قد يكون كريهاً هو لو أن آخر كلمات **روسو** الشهيرة كانت صحيحة؛ حين ادّعى أن الله سيسامحه لأن "تلك هي وظيفة الرب". وبالتالي فمهما كانت أفعالنا وتصرفاتنا فسوف يسامحنا الله. مثل ذلك العفو الرخيص لا يمكن أن يكون عادلاً ولا إنجيليا.

أكثر جزء في هذا الفصل من كتابك تشويقاً وإزعاجاً هو القسم بعنوان "عصر الأخلاق" والذي يفحص الثقافات الأخلاقية المتغيّرة. هنا أنت تؤيد مُعتقد شائع يحمله الملحدون – أن الأمور تسير نحو الأفضل طول الوقت. أن الإنسانية تتطوّر من الأخلاق البدائية إلى إجماع أخلاقي مُحسَّن. بالطبع هذا أمر مشكوك فيه، والدليل الذي تقدّمه لمثل ذلك التباهي الزمني (والغربي في الواقع) ضئيل للغاية. هل تتحسّن بالفعل القيم العصرية في بريطانيا وأمريكا؟ هل تتعرّض النساء بالفعل لمعاملة أفضل؟ هل انتهت العنصرية والتمييز؟ هل مجتمعنا الضحل المهووس بالجنس والمادة أفضل مما كان عليه قبل مائة سنة؟ ليس ذلك بالأمر واضح الثبوت! بالطبع كانت هناك طفرات كبيرة. لكن أحياناً ما يتساءل الواحد ما إذا كان الأمر خطوة للأمام وخطوتين للخلف. أظن أن فقط شخص أخلاقي لطيف من الطبقة الوسطى الغربية قد يكون على هذا القدر من الثقة والعفويّة إزاء التحسُّن العظيم في الوضع الأخلاقي للإنسانية. كنت أظن أن تلك الأخيلة الليبرالية

---

٦٣ "إن بلاد نارنيا تمثل كل ما هو كريه من الديانة" Polly Toynbee في The Guardian تاريخ ٥ ديسمبر ٢٠٠٥

المثالية تلقّت ضربة قاتلة بعد الحرب العالمية الأولى وأُبيدت بعد الثانية. لكن من الواضح أن ذلك لم يحدث. أنت مرة أخرى تقول أن الجنس البشري يتطوّر نحو الكمال الأخلاقي، وأن الشيء الوحيد الذي يحول بينه وبين إدراك تلك الغاية هو شر الدين.

تذكر كأمثلة على هذا العصر الأخلاقي المُحسَّن زيادة تصويت النساء وتغيّر المزاج نحو الأصل العرقي. تذكر أنه حتى واشنطن، جيفرسون، وآخرين من "الرجال المستنيرين" كان لديهم عبيد (من العجيب أنك مستعد لتبرير تلك الممارسات لهؤلاء الرجال فقط لأنها كانت قبل **٢٥٠** سنة لكنك تدين العهد القديم قبل **٢٠٠٠** سنة). أكثر ما يصدمني من كل شيء أنك تشير إلى أن **إتش. جي. ويلز** في كتابه "الجمهورية الجديدة" وفي تناوله لسؤال كيف ستتعامل الجمهورية الجديدة مع "الأعراق الدنيا" مثل السود والصفر..الخ فقال "حسناً، العالم هو العالم، وهو ليس مؤسسة خيرية، وأقول أنه سيكون عليهم أن يذهبوا". لقد أوضح مقصده بشكل كافي: إبادة الأعراق الأدنى. تصرّح بأن هذا الموقف ليس بالمقبول حالياً في المجتمع، والمدهش أكثر أنك تدّعي أن الرفض الحالي لمثل تلك الأفكار سببه "تحسّن مستويات التعليم بالأخص، إلى جانب الفهم المتنامي بأننا جميعاً أفراد ضمن بشرية مشتركة مع أعضاء الأعراق الأخرى ومع الجنس الآخر – أفكار هي في الواقع غير إنجيلية وتأتي من العلم الحيوي، وبالأخص من التطوّر". عندما قرأت ذلك كان عليّ ان أتوقّف وأستنشق نفس عميق. هل كتب **داوكنز** ذلك بالفعل؟ هل لديه من التهوّر ما يدفعه للاعتقاد أنّ بإمكانه الهرب بمثل تلك الكذبة الكبيرة؟

لقد علّم الإنجيل قبل وقت طويل (سفر التكوين **١**) أن كلاً من الرجال والنساء مخلوقون على هيئة الرب. وقال الإنجيل أيضاً أن كل المخلوقات البشرية – أياً كان أصلها العرقي – هم أبناء آدم، وأنهم جميعاً مخلوقون على هيئة الرب. أن تصف تلك الأفكار بأنها غير إنجيلية في حين هي قاعدة في الإنجيل فإنّ ذلك من السوء بما فيه الكفاية. لكن أن تقول أن التطوّر هو ما أنقذنا من شرور **ويلز** وأمثاله فإن تلك مبالغات مُبهرة. لقد كانت الكنيسة تدرّس قبل وقت طويل من نهاية القرن التاسع عشر أن كل البشر مخلوقون على هيئة الرب. السنة الماضية قمت بزيارة جامعة للسود في جنوب أفريقيا

حيث كانت أحد الصور على الجدار لشخص جنوب أفريقي أسود جاء ليدرس في جلاسكو وعاد ليُعيّن كاهن مشيخي في القرن التاسع عشر. لم تكن لا الكنيسة ولا الإنجيل من كان يروّج لتدمير الأعراق الأدنى. في الحقيقة أنت تذكر عنصرية **هاكسلي** (العِتق – أبيض وأسود – منشور عام ١٨٦٥) كنموذج للعصر في وقته. مع ذلك كان **هاكسلي** يروّج ضد روح العصر آنذاك. المجتمع آنذاك كان يقوده بالأساس نُشطاء ومفكرين مسيحيين يعملون وفق مبادئ إنجيلية، وتوصّلوا لاستنتاج أن العبودية كانت خطأ. البرلماني البريطاني **ويليام ويلبرفورس** اتخذ أول خطواته لإبطال الرق في عام ١٧٨٩. تحرّك من مرجعيته المسيحية الإنجيلية التي ترى أن جميع البشر مخلوقون على هيئة الرب، وقدّم ما لا يقل عن ١١ وثيقة لإبطال الرِق إلى مجلس العموم البريطاني حتى ألغيت تجارة الرقيق أخيراً عام ١٨٠٧. بعد حملات أخرى حُظِرت العبودية نفسها سنة ١٨٣٣. ثم انتهجت بريطانيا نهج إقناع الأمم الأخرى برفض الرِق – اشترت الحكومة الحظر البرتغالي والأسباني مقابل أكثر من مليون استرليني، والفرنسي في مقابل مساعدات عسكرية. عزّزت البحرية البريطانية ذلك الحظر طوال فترة خمسين عاماً وتكلفت ٤٠ مليون استرليني استولت خلالها على ١٦٠٠ سفينة وحرّرت ١٥٠ ألف مُستعبد.

عشرون عامً قبل **هاكسلي** في العام ١٨٤٠ أقامت كنيستي (سانت بيتر) في داندي لقاء وفعالية مُناهضة للرق كنشاط لدعم الحركة المناهضة للرق في الولايات المتحدة، ومع ذلك كان **هاكسلي** يدّعي أن تلك الأخلاقية الإنجيلية كانت غير علمية. هو لم يؤمن بما آمن به بسبب روح العصر ولكن بسبب علمه. لم يكن سوى التفكير التطوّري للدارونية الاجتماعية هو ما غذّى الهوس اليوتوبي عند **ويلز** والآخرين. أنا سعيد أن روح العصر لدى علماء الأحياء الملحدين التطوريين قد تحسّنت أكثر في الأونة الأخيرة، لكن رجاءاً لا تضعنا جميعاً في نفس القارب.

وهو ما يقودني بسلاسة إلى الصفحات الست التي كرّستها للحديث عن ستالين وهتلر. يمكنني تفهّم الأسباب التي تدعو الملحدين إلى محاولة استبعاد أنفسهم عن أشباه ستالين، ماو، وبولبوت– في النهاية فقد كان هؤلاء قادة الدول الإلحادية الوحيدة آنذاك، وكان سجلّهم في حقوق الإنسان – حسناً كيف نقولها؟ – لم يكن عظيماً بالتحديد. الحجة التي سمعت

الملحدين يستخدمونها هي: حسناً في الحقيقة لم يكن ستالين مُلحد لأنه تصرّف بشكل غير عقلاني والأشخاص غير العقلانيين لا يمكن أن يكونوا مُلحدين! إنها حُجّة الحلقة المفرغة المثالية، ولا أجد حكمة وراء محاولة كسر تلك الحلقة. مع ذلك فإن هتلر مختلف. تريد أن تعتبر هتلر مسيحياً، مع أنه حتى أنت تدرك أن تلك مجاوزة للواقع. كما أوضحت سابقاً فذلك موضوع درسته بتعمّق. الحقائق الأساسية هي كالآتي: نشأ هتلر كاثوليكياً؛ وصل للسلطة بينما كانت الكنيسة الكاثوليكية واللوثرية لازالتا قُوى اجتماعية مهمة في المجتمع الألماني؛ وكان حريصاً على استغلال رموز الكنائس المسيحية كلما استطاع؛ المفارقة الساخرة هي أنّ أولئك الذين روّجوا لفكرة تروجها أنت ايضاً – أنّه لا دين في السياسة ولا سياسة في الدين — هم من قدّموا أفضل بيئة لعدم مُعارضة هتلر. لحسن الحظ أن رجال مثل **دايتريش بونهاويفر** وآخرين كانوا مستعدين لتجاهل تلك النصيحة وفِعل ما بإمكانهم لمقاومة الشر. حتى أن **بوينهويفر** قام بطباعة اتهام لهتلر بأنه مناهض للمسيحية، وهاجم أيديولوجية "الدم والرمال" النازية قائلاً: "قد يُسمّي تلك الأيديولوجية مسيحية، ولكنه بفعل ذلك يصبح عدواً للمسيح"[٦٤]. ولهذه الشجاعة الناشئة عن مرجعيته الدينية المسيحية، دفع ثمن التضحية الغالية. إذا كنّا فعلا نرغب في معرفة ما اعتقده هتلر، فإن أفعاله، وأكثر من أي شيء كلماته الخاصة هي أكبر دليل دامغ. وأنا ممتن لك للإشارة إلى مجموعة أحاديث الطاولة لهتلر، والتي يخبرنا بشكل قاطع ما كان هتلر يعتقده بخصوص المسيحية: "إن أكبر ضربة أصابت البشرية مطلقاً هي مجئ المسيحية". بل والأكثر إثارة للاهتمام الاقتباس التالي من سكرتيرة هتلر الخاصة **تراودل جونج** :

"في بعض الأحيان كانت لدينا تلك المناقشات المثيرة حول الكنيسة وتطوّر العرق البشري. ربما من المبالغة أن ندعوها مناقشة، فهو يبدأ في تفسير أفكاره ما أن تُطلقها ملاحظة أو سؤال يصدره واحد منا، وأما نحن فنستمع. لم يكن عضو بأية كنيسة، وكان يعتبر الديانة المسيحية مُنتهية الصلاحية ومؤسسة نفاق تغوي الناس بالانضمام لها. كان دينه هو قوانين الطبيعة. كان بإمكانه دمج عقيدته العنيفة والدموية مع الطبيعة أكثر من العقيدة المسيحية الخاصة بأحب جيرانك وأحب عدوك. قال ذات مرة:

---

٦٤ Bonhoeffer في كتاب Discipleship

"إنّ العلم لم يصل بعد لأصل البشرية. ربما نحن أعلى مرحلة في تطوّر بعض الثدييات التي تطوّرت من الزواحف وتحوّلت إلى صورة البشر، ربما عن طريق القردة. نحن جزء من الكون وأبناء الطبيعة، ونفس القوانين التي تنطبق على كل المخلوقات تنطبق علينا. وفي الطبيعة ساد قانون الصراع من أجل البقاء منذ البداية. كل شيء غير قادر على الحياة، كل شيئ ضعيف، يُستأصل. فقط البشرية وقبل كل شيء الكنيسة هي من حافظت على بقاء الضعفاء وغير المؤهلين للحياة والأفراد من النوع الأدنى""[٦٥].

ربما يلخص هذا الأمر كله.

تسأل في نهاية هذا الفصل "ما الذي قد يدعو أية شخص إلى إعلان الحرب إن لم يوجد الإيمان؟" أظن بذلك أنك تعني إن لم يوجد الإيمان بالله. الإجابة على سؤالك مزدوجة. أولا، ربما يكون الدافع وراء ذهاب الناس إلى الحرب هو غياب الإيمان. إذا كنت تؤمن مثل ستالين وهتلر أنه لا وجود لإله يحاسبنا، وأن (القوة تخلق الحق)، وأن (الحق يأتي على فوهة البنادق)، فمن المحتمل أكثر أنك ستنغمس في جيناتك الأنانية وتذهب إلى الحرب لتنال ما تريده. الإجابة الثانية على سؤالك هي في النص المقتبس في الأعلى. من الواضح أن هتلر لم يذهب إلى الحرب بسبب إيمانه بالله أو لأنه أراد نشر المسيحية. بل هو كَرِه المسيحية. على الجانب الآخر فقد آمن بأن الدين فيرس (أين يا تُرى سبق لي أن سمعت ذلك؟) وأن اليهود على الأخص كانوا حشرات طُفيلية ينبغي إبادتها من أجل مصلحة حفظ النوع. كان الأمر بمجمله عقلاني تماماً، داروني تماما، وبدون إله. ربما تقدّمت روح العصر الإلحادية منذ ذلك الحين. ولكن في الوقت الراهن وحتى يثبت العكس، أُفضّل لو أنّنا نتشبّث بالمنظومة الأخلاقية المُجربة والمُختبرة التي يقدّمها لنا الإنجيل.

المخلص ديفيد

---

٦٥ Until the Final Hour صفحة ١٠٨

الرسالة العاشرة

أسطورة الاستغلال الديني للأطفال

عزيزي د. داوكنز

أنت تسأل "أوليس هو أيضاً نوع من استغلال الأطفال أن نُصنّفهم كأصحاب مُعتقد هم أصغر كثيراً من أن يكونوا قد فكّروا فيه؟". هذا السؤال هو هدف الفصل التاسع كله. رأيك أنه لا ينبغي تعليم الأطفال الدين، وتوضّح هذا الرأي بقصة مُرعبة عن اختطاف ولد إيطالي يهودي في القرن التاسع عشر؛ وبالحديث عن الاستغلال في الكنيسة الكاثوليكية؛ وبالإشارة إلى مقابلة مع الأب **كينان روبرتس** الذي يؤسّس (بيوت الجحيم[٦٦]) لتلقين الأطفال؛ وباستعراض شهادات أشخاص نشأوا في بيوت مسيحية وأصبحوا الآن ملحدين؛ وبتناول سريع للآميش؛ ثم بالهجوم طوال ستة صفحات على

٦٦ أماكن ترفيهية أشبه ببيت الرعب تقيمه في المُعتاد بعض الجماعات أو الكنائس المسيحية قبل عيد الهالوين. يتم فيها تجسيد الجحيم والجنة.

مدرسة (إيمانويل) في شمال شرق انجلترا، ودعوى ضد تصنيف الأطفال بناء على دين أهلهم. وتُنهي الفصل بالقول أن التعليم الديني ينبغي أن يقتصر على دراسة الإنجيل كنص أدبي. بشكل عام سوف يُشاطرك الملحدون الآخرون الرعب مما تُسمّيه استغلال الأطفال، وربما يتأثر آخرون ليفكّروا أنه ربما تكون لديك وجهة نظر. لكن دعني أقترح أن هناك مرة أخرى ثغرات كبيرة في وجهة نظرك.

أنت تجنّبت التركيز على الاستغلال الجنسي من أجل التركيز على بشاعة تأثير الاستغلال النفسي على الأطفال. تعترف علانية أنك كنت ضحية استغلال جنسي في طفولتك في مدرستك الإنجليزية الداخلية من جانب أستاذ "كان غرامه بالأولاد الصغار يتجاوز حدود اللياقة"؛ شيء تصفه على أنه "تجربة مُحرجة ولو أنها غير مؤذية". يقودك هذا إلى الحديث عن قضايا مُفزعة لاستغلال الأطفال ظهرت إلى النور فيما يخص الكنيسة الكاثوليكية، ثم تقدّم التصريح غير الاعتيادي: "بقدر ما كان الاستغلال الجنسي رهيب، فإن الضرر كان ولا شك أقل من الضرر النفسي طويل الأمد الناشئ عن تنشئة الطفل باعتباره كاثوليكي من البداية" (تعليق تخبرنا أنك قلته أمام جمهور من مفكري دبلن وأنه تلقّى موجة استحسان عفوي كبيرة). ليس فقط الكاثوليكيين من توجّهت نحوهم بالهجوم – بالرغم من أنه يبدو أن لديك إزاءهم وإزاء الإيفانجيليكيين الأمريكيين ازدراء خاص. أنت أيضاً تذكر طائفة البريثريين الانفصاليين[٦٧] ، "أكثر من مجرد طائفة كريهة للغاية". لاحقاً تتعرّض إلى الآميش، وفي بعض عبارات مُقتضبة تنتقص من شأنهم تقول أن المجتمع المعاصر مُذنب بترك الأهل من الآميش يسيئون استغلال أطفالهم.

كل ذلك بالطبع يقود إلى استنتاج صادم وحتمي. إذا كان الوضع كما تقول، والدين هو فيرس، فإن الشئ المنطقي هو حماية الأطفال منه. تذكر باتّفاق واضح ما يقوله النفسي **نيكولاس هامفري**:

"أقول أنّ الأطفال لديهم حق إنساني في ألا تُعاق عقولهم بالتعرُّض لأفكار ضارّة من الآخرين – بصرف النظر عمّن هم هؤلاء الآخرين... لذا فينبغي ألا نسمح بعد اليوم للآباء والأمّهات أن يعلّموا أطفالهم أن يؤمنوا – على سبيل المثال –

---

[٦٧] Exclusive Brethren

بالصِحَّة الحرفية للإنجيل، أو أن الكواكب تحكُم حياتهم، أكثر مما نسمح لهم بأن يحطّموا أسنان أطفالهم أو أن يحبسوهم داخل سجون تحت الأرض."

نكاد نصبح الآن في حلقة دائرية مكتملة. بدأت بسرد قصة اختطاف إدواردو مورتارا، والذي أُخذ من والديه لأن خادما قام بتعميده كاثوليكياً بينما والداه من اليهود. السلطات الكاثوليكية كانت مستعدة "لحماية" الطفل من التنشِئة اليهودية التي رأوا أنها سوف تضرّه. لك الحق في أن يصيبك الذعر من تلك القصة برغم أنك الآن تُروّج إلى وضع يكاد يكون مُشابه تماما.

لقد علّمت وسوف أستمر في تعليم أطفالي أن الإنجيل صحيح، والآن أنت تتهمني بأنني أتسبّب لهم في ضرر أكبر من لو أنني استغللتهم جنسيا. ربما في العالم الجديد الشجاع للدولة المُلحدة فإن بوليس الأفكار الديني سوف يُبتعث في كل مكان ليتأكّد من أن أطفالي يتم تعليمهم أفكار "صحيحة". إذا كان من الصائب أن تأخذ الدولة الأطفال من ذويهم الذين قد يستغلونهم جنسياً، وإذا كنت تعتقد أن تنشئة طفل على الإيمان المسيحي هو استغلال أكبر وأسوأ، فمن المنطقي إذن أن تعتقد أن الدولة ينبغي أن يكون لديها الحق في حماية الأطفال من وضع استغلالي كهذا. إذا تبعت منطقك فإن قصة إدواردو مورتارا سوف تكون نفس قصّة الكثير من الأطفال الذين لا يقبل أهلهم روح العصر الإلحادية للنظام الأخلاقي الجديد. كما تشير **مارلين روبنسون**، المؤلّفة العبقرية حادّة البصيرة التي قدّمت أفضل قصة من القرن الماضي "جيليد" :

"وهل كان من المُمكن أن يسوء الوضع أكثر من ذلك، إذا سقط الطفل في أيدي هؤلاء ممن يعتبرون يهوديّته بيولوجية وليست دينية أو ثقافية كما سوف يحدث في القرن القادم لكثيرين. رغم اعتراض دواكنز الذي يعتبر أنّ العلم النازي ذلك لم يكن "عِلم" حقيقي فأنّني أقول: أولاً، لا النازي ولا الألمان كان لديهم اي احتكار على تلك النظريات، والتي كانت مؤثرة عبر جميع أنحاء العالم الغربي. وثانيا، أن التجارب على العينات الإنسانية التي قام بها هؤلاء الذين يحملون فرضيات مُعيّنة كانت "علم" جيد بما يكفي للظهور على النصوص الطبية لمدة نصف قرن كاملة. ليس ذلك للقول بأنّ العلم ميّال

بصورة استثنائية لفعل الشر، ومع ذلك فقدرته على تحقيق الشر لا مثيل لها حتى الآن. إن القضيّة فقط هي ملاحظة أن العلم هو الآخر يحمل تلك النزعة الإنسانية الموحشة، وأنه أداة ضخمة من أدواتها"[٦٨].

إنّ فكرة أن إبعاد الأطفال عن الدين سوف تُنقذ العالم بشكل ما هي فكرة وهمية تتجاهل المنطق، والعقل، والتاريخ الإنساني. فيما يخص التاريخ الإنساني، أتذكّر لاجئة في هولندا التقيتُ بها في العام الماضي. هي طبيبة مُتعلمة من أذربيجان. مرّت بالتجربة المرعبة لعمليات التطهير الجماعي العرقية والدينية — حيث أجبرها المسلمون المتطرفون على الهروب إلى المنفى. قد تتوقّع أنها نظراً لتعرُّضها للانعكاسات الشريرة للدّين فإنها سوف تتّفق معك في أرائك. لكن عندما ناقشت الأمر معها وجدتها تختلف معك اختلافاً كُليا. قالت لي "لقد أمضينا ٧٠ سنة لم يكن مسموح لنا فيها أن نتعلّم أي شيء حول الله. لقد عشنا في دولة مُلحدة لا يتم تعليم شيء فيها سوى الإلحاد. لقد حاولوا أن يحظروا وجود الله حتى في داخل بيوتنا". النتائج يمكن تبيّنها بوضوح في الاتحاد السوفيتي الملحد. إن الأفكار والفلسفات التي تحاول تقديمها في هذا الفصل تمّت تجربتها بالفعل، وكما أوضح التاريخ، حقّقت فشلاً ذريعا.

يخيفني بعض الشيء أن الموقف الأساسي الذي تُصوّره في هذا الفصل هو موقف يصنّفني باعتباري مُستغلٌ للأطفال وتعرّضتُ للاستغلال على السواء. لقد نشأت وسط بيئة بريثرينية (طائفة من المسيحية). كانت هناك نواحي منها لم تعجبني، والتقيت ببعض الأشخاص الغرباء، وسمعت بعض الأشياء الغريبة. ومع ذلك فقد التقيت أيضاً أشخاصاً رائعين وتعلّمت بعض الأشياء الرائعة — ليس أقلّها قيمة أنّ عليّ أن أستخدم عقلي الخاص. كان عقلي يفعل ذلك تحديداً مما جعلني في البداية أرفض الإيمان الذي نشأت عليه ثم أعود مرة ثانية إلى الإيمان من جديد، ليس إلى البريثرينية ولكن إلى المسيح. كانت طفولتي سعيدة بشكل كبير، في ظِل أسرة مُتحابّة ومجتمع مُتفتّح. ومع ذلك فأنت تعتقد أنني كنت لأكون أسعد حالاً لو أنني تعرضت للاستغلال الجنسي من جانب واحد من أساتذة مدرسة داخلية من لو أنّني نشأت وأنا أتعلم أشياء عن المسيح. وتتهمني أنني أسوأ من شخص يُسيئ استغلال الأطفال جنسياً لأنني أُعلّم أطفالي بسعادة أن

---

٦٨ عرض لكتاب The God Dellusion في Harper's Magazine عدد نوفمبر ٢٠٠٦
متاح على الانترنت على موقع http://darwiniana.com/٢٠٠٩/١٠/١١/marilynne-robinson-on-dawkins

الله يحبّهم، وأنهم مُهمّون، وأن لهم دور ومكان في عالمه. هل من الغريب أن يظن الناس أنّ منطقُك مشوّه إلى حد ما بسبب أصوليتك العلمانية؟ وأليسوا على حق في أن يكونوا أكثر من خائفين من تبعات وجهة النظر المُنحرفة التي تقدّمها؟

بالحديث عن المدارس، فقد يتساءل قُرّاؤك الأمريكيون عن سبب تكريسك ستة صفحات من أجل الهجوم على مدرسة حكومية واحدة في شمال شرق انجلترا. أي نوع من الأماكن الشريرة والرهيبة هي تلك المدرسة حتى تجعلك أنت – كبير أساقفة أكسفورد – ولفيف من المثقفين الإنجليز تدينونها وتهاجمونها إلى هذا الحد؟ مدرسة إيمانويل هي مدرسة حكومية. في انجلترا ليس لدينا فصل رسمي بين الدين والدولة، ولذا فإن كثير من المدارس الحكومية لها مرجعية مسيحية. عدد لا بأس به من المدارس في انجلترا هي مدراس انجليكية، ولازالت الحالة أن معظم المدارس بها على الأقل نشاط تعبُّد مسيحي واحد في الأسبوع. ومع ذلك فمعظم النظام الحكومي للتعليم في بريطانيا في أزمة – إنّ حقيقة تدنّي المعايير في نفس وقت تراجُع المسيحية وبزوغ العلمانية ربما يكون – وربما لا يكون في محله. كثير من التلاميذ الأكثر فقراً يتم تركهم في مدارس غير فعّالة لديها سجل أكاديمي سيء للغاية. حاولت الحكومة تشجيع المتبرّعين الأثرياء على الاستثمار في المدارس الحكومية في المناطق الأكثر فقراً المعروفة باسم المدارس التجريبية[٦٩].

أحد الأشخاص الذين قاموا بالاستثمار هو **سير بيتر فاردي**، مليونير ورجل أعمال، وهو أيضاً مسيحي. واحدة من المدارس الثلاثة التي دعمها ، حتى قدر **٢** مليون استرليني لكل منها، هي مدرسة إيمانويل، في منطقة (جيتسهيد) شمال شرق انجلترا. إذن فلماذا تهاجم أنت وكثير من أصدقائك تلك المدرسة بمرارة؟ لماذا في كتاب عن وهم الإله وفي فصل عن الاستغلال الديني للأطفال، تُكرّس مثل هذا الحيز الكبير للهجوم على تلك المدرسة وتُسمّيتها بالفضيحة التعليمية؟ لأن رئيس قسم العلوم **ستيفن لايفيلد** وهو شخص مسيحي كتب ورقة عن "تعليم العلوم: وجهة نظر إنجيلية" يرتكب فيها

---

٦٩ City Academies هي تجربة تعليمية نشأت في انجلترا عام ٢٠٠٠ تقوم على إنشاء مدارس مستقلّة وفي نفس الوقت خاضعة للتمويل والإدارة الحكومية إلى جانب إتاحة الفرصة للاستثمار الخاص سواء أكان شخص أو مؤسسة للمشاركة في مصاريف المدرسة. عادة ما يكون لكل مدرسة منها تركيز أكبر على أحد أفرع العلوم أو الفنون

الخطيئة العُظمى بالتجرُّؤ على التشكيك في التطوُّر. الآن هو قد يكون أو لا يكون مُخطئ – وأنا على يقين أنه إذا تم تعليم المبادئ الأساسية للعلوم فإن تلامذته سوف يكونوا قادرين بأنفسهم على تمييز الحقيقة. لكن هل لديك فعلاً الحق في تصنيف مدرسة إيمانويل المسيحية كمكان يتم فيه استغلال الأطفال؟ هل لديك الحق في تسميتها "مدرسة خَلقية"[٧٠] تغسل عقول التلاميذ لقبول المنظور الإنجيلي دون مُساءلة؟

قررت أن أعرف الحقيقة، ولم تكن مُفاجاة أن الحقيقة كانت مختلفة. إن سياسة المدرسة هي تعليم البراهين مع أو ضد التطوُّر، التصميم الذكي..الخ. ويتم تشجيع الطلاب على اتخاذ موقف نقدي لا يقبل الأشياء دون عرضها للنقاش والتدقيق. يتم تشجيع الطلاب والأساتذة على السواء على تقديم وجهات نظرهم الخاصة. بين فريق أساتذة العلوم المكوّن من تسعة أساتذة: ثلاثة منهم أخذوا موقف خَلقي يؤمن بخلق أرض فتية[٧١]، ثلاثة موقف تطوّري إيماني، وثلاثة منهم أخذوا موقف تطوّري غير مسيحي. هل تبدو تلك كمدرسة مُصمّمة لتجاهل التفكير العلمي؟ كما أرى الأمر فهي تعكس تجربة مُشابهة لمدرستي حيث كان أستاذ الكيمياء مُلحد، وأستاذ الفيزياء مسيحي، وأستاذ الأحياء خَلقي يؤمن بخلق أرض فتية. جميعهم كانوا أساتذة جيّدين لم يسعوا لفرض آرائهم. فلماذا إذن تعارض بحدّة مدرسة إيمانويل؟

يصبح ذلك محير أكثر عندما ننظر إلى الأداء الجيد للمدرسة. في مارس **٢٠٠٦** تلقّت المدرسة تقييمها الثالث بدرجة "مُتميّز" من هيئة (أوفستيد) للجودة التعليمية – لتكون واحدة من بين اثنا عشر مدرسة فقط في انجلترا في ذلك الوقت. نتائج الامتحانات في أغسطس وضعت المدرسة بين أفضل خمسة مدارس شاملة في انجلترا. تلك ليست مدرسة في الضواحي النُخبوية الخضراء لأكسفورد. بل هي مدرسة في واحدة من أفقر مناطق انجلترا يتلقّى فيها **١٢٥٠** تلميذ تعليم ممتاز في مدرسة جيدة. بالطبع كشخص ليبرالي إنساني فيُفترض أن يُسعدك مثل هذا النجاح – حتى لو أن رئيس قسم العلوم لديه أفكار تعتبرها خاطئة. لكن مزاجك تجاه الأمر كله مُربك ومحيّر ويعكس من مرجعيتك الأصولية أكثر مما يعكسه عن الموقف الليبرالي الإنساني التي يعتبر أنّ التعليم أمر جيد في ذاته ولذاته.

---

٧٠ ترفض نظرية التطوّر

٧١ Young-Earth Creationism الإيمان بأن الله خلق السماء والأرض والحياة في فترة زمنية قصيرة نسبياً

من الجدير ملاحظة أن الحملة ضد تلك المدرسة بالغة النجاح بدأت من جانب الجمعية العلمانية القومية. لماذا؟ لماذا لم يبدأوا حملة لتحسين مستوى جميع مدارسنا لتصل إلى المستوى والمعايير التي تتمتع بها مدرسة إيمانويل؟ لماذا لا يصرخون من فوق أسطح البنايات ضد فضيحة النظام التعليمي المتدنّي في بلادنا، خاصة للفقراء، بدلاً من مهاجمة مدرسة تعمل بشكل جيد بالفعل؟ ذلك لأنهم أكثر اهتماماً بأيديولوجيتهم من اهتمامهم بالناس. حتى أنني أعرف أحد المسئولين في تلك الجمعية والذي بينما هو يُشارك علانية في حملات ضد أي نوع من التأثير المسيحي في المدارس الحكومية، يُرسل أبناؤه إلى مدرسة مسيحية خاصة لأنهم "يحصلون على تعليم أفضل هناك". يالها من ازدواجية.

بالحديث عن الازدواجية أنت تذكر **دان باركر**، كاهن أصولي سابق ظل يؤدي الوعظ لفترة في الكنيسة بعد تحوّله للإلحاد، والذي يقول أنه يعرف "عديد من رجال الكهنوت الأمريكيين الآخرين الذين هم في نفس الموقف الذي كان عليه ولكنهم لم يفشوا سر تحوّلهم عن المسيحية سوى إليه بعد قراءتهم لكتابه". لا أجادل في صحّة ذلك. هناك في الكنيسة العديد من المسيحيين الثيوقراطيين الذين هم في الحقيقة مُلحدون. ذلك حقيقي بالأخص عندما يمكن للدين أن يكون وسيلة لكسب المال. إذا توقّف شخص ما عن الإيمان فبالطبع ينبغي ألا يستمر في أخذ راتب من المؤسسة التي لم يعد يُروّج لافكارها، أو تعليم عقائد لم يعد يؤمن بها.

كوني جئت من خلفية الطبقة العاملة فإنني لم ألتحق بمدرسة داخلية، وليس لديّ المال لتوفير "أفضل" تعليم لأطفالي. مع ذلك فأنا أكثر من سعيد بإرسالهم إلى المدارس الحكومية، لكني لا أريد أن يتم تلقينهم من جانب الأقلية العلمانية الملحدة التي تؤمن بأن فلسفتها هي الفلسفة الوحيدة التي ينبغي أن يكون لها الكلمة العليا. لاحظت أنّه بالرغم من أن الملحدون يتحدثون ويتحدثون عن التعليم، فعندما يتعلّق الأمر بالعمل فإنّهم لا يبنون المدارس أو يستثمرون الأموال فيما يشغلون به أفواههم من حديث. على النقيض يفضّلون الاستيلاء على عمل ومال ومُبادرات الآخرين بحيث يكون باستطاعتهم استخدامها للتعليم وِفق فلسفتهم الخاصة.

كان موطني في اسكتلندا شهير بنظامه التعليمي، نظام يتيح الفرصة والتعليم والتقدُّم لكل من هو مستعد لتلقيها. كان نظاماً مبنياً على المبادئ المسيحية، ويعمل وفق مبدأ أنه أينما كانت هناك كنيسة فلا بد من أن تكون هناك مدرسة. جميع جامعاتنا الكبرى كانت مُنشأة على المبادئ المسيحية وبشكل عام فقد خدَمَنا هذا النظام التعليمي بشكل جيد. ليست مُصادفة أنه ما أن بدأ استبعاد المبادئ الأساسية للمسيحية من المدرسة ومن الثقافة حتى أصبحت اسكتلندا ذات ثقافة مُترهلة، وانزلقنا سريعاً من فوق طاولة معايير التعليم العالمي.

لا أريد نظام ستاليني يحظُر المسيحية من المدرسة والمنزل. ولا أريد كذلك نموذج أمريكي علماني يترك الأغنياء والطبقة الوسطى يرسلون أطفالهم إلى مدارس خاصة (غالبا ما تكون قائمة على مبادئ مسيحية) بينما يترك في الغالب الفقراء يتعفّنون في نظام حكومي فقير الموارد مبني على فلسفات تعليم هزيلة. إن تعليم الأطفال على أسس المبادئ المسيحية من الحب، والاحترام المتبادل، والتساؤل، والصدق، والعدالة ليس إساءة استغلال. لكن حجب فرصة التعليم الجيد عن الأطفال بسبب انحراف فلسفتك — فذلك هو الإساءة الحقيقية. واتهام الأهالي الذين يسعون لتنشئة أطفالهم في ظل حب وسلام المسيح بأنهم يسيئون استغلالهم ما هو إلى انعكاس ما تحمله من حقد وكراهية.

هناك مع ذلك شيء واحد يمكن أن أتفق معك فيه. أنت ترثى وجود حالة من الأمّية الإنجيلية في مُجتمعنا الحالي. أتفق معك تماما. ولكن انتبه، فإنّ هذا الجهل وحده هو ما يعني أن بإمكانك التسلّل بكثير من الادعاءات الخاطئة التي تقدّمها في كتبك عن الإنجيل. أي شخص مُثقف ثقافة إنجيلية صحيحة سوف يكتشف فوراً أن رؤيتك للإنجيل ملتوية وخارج السياق. ما قد يصدمك أكثر (وبالتأكيد هو أمر يحبطني) هو قدر الأمّية الإنجيلية التي عليها كثير من مُعتنقي المسيحية. لو أنّ المسيحيون أدركوا كلمة الله بشكل أفضل وكانوا على قدر أكبر من المعرفة لما كان لدينا هذا القدر من القلق من انبعاث الإلحاد الذي تحاول تشجيعه. الإنجيل أكثر بكثير من مجرد مجموعة نصوص أدبية وثقافية ممتعة. إنه الكلمات الحية والباقية من الرب. السماء والأرض سوف ينتهيان لكن كلمة الرب سوف تبقى للأبد.

دعنا ننتقل بشكل مُجمل إلى الفصل العاشر. هو بشكل ما فصل غريب وغير مترابط يدور حول فكرة الدين كنوع من العزاء، ويتناول الرؤية المسيحية للموت، وينتهي بنظريات الفيزياء الكمّية. يبدو أنك تعتقد أن هؤلاء من بيننا المؤمنون بالله هم أطفال لم ينضجوا بعد من الاعتمادية على صديق تخيُّلي. بصرف النظر عن الجانب الاستهزائي من ذلك، يلح علي السؤال: إذا كان رب الإنجيل، أو رب الكاثوليكيين، أو رب أي إنسان هو على درجة البشاعة التي تصفه بها، فكيف يمكن أن يكون الإيمان به عزاء لأي شخص؟

بالنسبة للموت، تُشير ضمناً إلى أنه لو أنّنا آمنا حقاً بما نقوله لكان الواحد منا سعيداً بموته. بالطبع لو أننا جميعاً تطلّعنا إلى قبورنا بحماس لكنت تذكر ذلك حينها كدليل على قدرة الدين على غسيل المخ! أحد أسباب إيماني هو بالتحديد الموت. سيكون سهلاً وباعثاً على الارتياح بشكل ما أن أعتقد أنه بمجرد أن أموت ينتهي كل شيء. تخيّل أنه لا حياة بعد الموت. لا أحد لنقف بين يديه. لا جنّة ولانار. لا شيء غير معروف. فقط الموت، السكون، واللاشيء. الإيمان بذلك قد يكون في نظر كثير من الناس نِعمة. لا عجب أن بعض من متحوّليك الملحدين يصفون الإيمان بمثل ذلك اللاشيئ بحماس يكاد يشبه الحماس الديني. ومع ذلك فقد حاولت إقناع نفسي بذلك التصوُّر ولكنه لم يفي بالغرض. لم ينجح لأنه لا يقرع أي جرس. لا يفي بالغرض لأن هناك شيء ما في داخلي يخبرني أن هناك المزيد وراء "الحياة" من هذه الحياة. لا ينجح لأن الكون كله يصرخ بعظمة وجلال الله. لا ينجح لأن لدي عقل يخبرني بأني لست شيء غير حي ولا أنا مجموعة جزيئات في طريقها إلى لا شيء. لم ينجح لأني أدرك أن جسدي أكثر من مجرد ماكينة بقاء أحادية الاستخدام، تماماً كما أُدرك أن العالم ليس مُسطّح وأن الحياة ليست بلا معنى. مفهوم الإلحاد للموت موجود في رواية **كاموس** بعنوان "الغريب". هو تصوّر ميئوس منه. المفهوم المسيحي مختلف كلية.

في مراجعة كتابك أظن أننا نمر على فلسفتين متنافستين. ليس لهما في الحقيقة ارتباط كبير بالعلم فيما عدا أن كلاهما يشير إلى الاكتشافات العلمية كدلائل. فلسفة الوضعية المنطقية[٧٢] تعني أن علومك تستبدل الله. تلك هي نظرتك

---

٧٢ Logical Positivism

الكونية. حياتك. وإيمانك. لا عجب أنك "مُتديّن" للغاية في دفاعك عنها وإصرارك على اقتلاع المهرطقين والضعفاء من الاسترضائيين. في الفصل العاشر تتحدث عن "خلع البرقع" وتعني استبعاد المنظور الضيق الذي لدينا لـ (العالم الوسطي). تقترح أنّ ما نراه حتى الآن هو فقط رؤية جُزئية ولكن العلم سوف يُمكّننا من أن نرى بوضوح. كنت أعمى وأبصرت. تكاد تكون تبشيرياً في حماستك وإنجيلياً في كلماتك: "في الوقت الراهن نرى من خلال زجاج، مظلم؛ لكن بعد ذلك وجهاً لوجه" رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس **١٣:١٢**[٧٣]

في هذا الفصل الأخير تُفجّر أي ادعاء بأن وجهة نظرك مبنية على براهين علمية ملموسة وقابلة للاختبار. طوال الكتاب كُنت تستخدم وجود المادة كعدسة ينبغي أن نحكم من خلالها على كل شيء. وتضيف لذلك نكهة ما تعتبره خبرة المنطق السليم، وبخاصة الاحتمالية. ومع ذلك في الفصل العاشر تتجاوز كل ذلك. تذكر ما يقوله ستيف جراند، عالم الكمبيوتر المتخصّص في الذكاء الاصطناعي: "إنّ المادة تتدفّق من مكان لآخر، وتتجمّع لحظيا لتُصبح أنت. مهما تكون إذن فأنت لست الأشياء التي أنت مصنوع منها. إذا لم يجعل ذلك شعر رأسك يتوقّف، فاقرأه مرة تلو مرة حتى تشعر بذلك، لأن ذلك أمر مهم". يستطرد جراند في ادّعاء أن أي تجربة تتذكّرها من طفولتك فعليك أن تتذكّر أنّك لم تكن حقاً هناك. "مانراه من العالم الحقيقي ليس هو العالم الحقيقي دون رتوش وإنما هو نموذج من العالم الحقيقي، مُنظّم ومُواءَم عن طريق بيانات الحواس – نموذج يتم إنشاؤه لكي يساعدنا على التعامل مع العالم الحقيقي!" تلك أشياء رائعة يبدو أنها تتواءم مع التصوُّر الروحاني – وربما أيضاً الإنجيلي – للروح. لكنها على بعد مليون ميل من الدليل العلمي الذي تصر على المطالبة به. في الحقيقة أن معظم ما فيه لا يزيد عن تخمين شيّق للغاية – محاولة تفسير وملء الفجوات التي لا يستطيع العلم الإجابة عليها. أسمّي ذلك أيديولوجية ABGism[٧٤] أو أي شيء عدا الله.

في عبارتك الأخيرة تقول "بل والأفضل من ذلك؛ فربما نكتشف أنه لا توجد أيّة حدود". بالتأكيد أنت لا تعني ذلك. لأنك تضع حداً لله. لا يمكنك أن تؤمن في إله خلق الكون (ذلك حَدّ). ترفض أن تؤمن بإله أيقظ المسيح من الموت

---

٧٣ 1Corinthians ١٣:١,KJV

٧٤ Anything But God

(ذلك حدّ). وتسخر من فكرة أن هذا الإله قادر على التواصل مع البشر عن طريق روحه وكلماته (ذلك حد آخر). أنت مستعدٌّ لقبول أنه لا توجد حدود فقط فيما يخص المعرفة الإنسانية. في الحقيقة أنت تودّ استبدال الله بالإنسانية. تريدنا كوعي أعلى أن نصبح مثل الرب. أعتقد أنه ذات مرة، قبل وقت طويل مضى، كان هناك شخص آخر عرض على الإنسانية مفتاح كل المعرفة. ووقعنا في الفخ حينها ولازلنا حتى اليوم ندفع الثمن. أصلّي كي لا نقع في نفس الفخ من جديد.

المخلص ديفيد